



اتحاد الكتاب العرب

الثقافة للجميع

مطالعة

كتابات الجيب

يوزع مجاناً مع مجلة الموقف الأدبي - العدد 68 - كانون الثاني - 2013 السنة الخامسة



عبقريات العقاد دراسة وتحليل

اختيار: أ. د. حسين جمعة
تقديم: مالك صقور

عبريات العقاد
دراسة وتحليل

عنوان الكتاب : عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)

اسم المؤلف : رفعت فوزي عبد المطلب

اختصار : أ.د. حسين جمعة

تقديم : مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/68/ كانون الثاني

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الإلكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
<http://www.awu.sy>

رفعت فوزي عبد المطلب

عَبَقْرِيَّاتُ الْعُقَاد

دراسة وتحليل

اختيار: أ. د. حسين جمعة
تقديم: مالك صقور

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (68)

عباس محمود العقاد 1889-1964

مالك صقور

واحد من أهم رجالات الأدب والفكر والسياسة في مصر:
مفكر، شاعر، كاتب، باحث، ناقد، مؤرخ، صحفي وسياسي.
حاد الطبع، شرس، أبي النفس، عصامي، ذوهمة عالية،
مجتهد، غرّد خارج السرب، سبّح عكس التيار، وكان يسير عكس
الاتجاه.

إنه عباس محمود العقاد. الشخصية الإشكالية بامتياز، صاحب
المعارك الثقافية، وصاحب أشهر صالون أدبي في مصر.

* * *

ولدَ عباس محمود العقاد في أسوان، البلدة النائبة في صعيد
مصر، عام 1889، تعلّم في ابتدائية بلدته، ونال الشهادة الابتدائية

عام 1903. واضطرتته ظروفه المادية أن ينقطع عن التعليم، لكنه تعب على نفسه في تحصيل الثقافة وهو ينتقل من عمل إلى آخر، ومن وظيفة إلى أخرى، عمل بالصحافة حوالي خمسين عاماً في صحف متعددة أهمها الأهرام، صادف أن زار مدرسته مفتي الديار المصرية الشيخ محمد عبده. فعرض أستاذه على الشيخ دفتره، فتنبأ له بمستقبل أدبي، قائلاً: "ما أجدر هذا الفتى أن يكون كاتباً". وحقاً هذا ما كان.

ومن الجدير ذكره أيضاً، أنه التقى الشاعر الكبير أحمد شوقي ولم يكن قد تجاوز ربيعته العشرين، ولأنه يعتد بنفسه ورأيه سرعان ما خالف أحمد شوقي الرأي، ومن تلك اللحظة، التي التقى فيها أحمد شوقي بدأ عباس الفتى يتناول على أمير الشعراء ويناصبه الخصومة، والخلاف في الرأي. وعندما تمّ الإجماع على مبايعة أحمد شوقي بإمارة الشعر، خالف عباس العقاد رأي الجميع، رافضاً مبايعته، وعمل بكل جد على تأسيس تيار مضاد تحت اسم (مدرسة الديوان) بالاشتراك مع إبراهيم المازني، وعبد الرحمن شكري. وذات يوم استمع إلى مصطفى صادق الرافعي وهو يتحدث عن الإعجاز البياني للقرآن الكريم، كذلك وقف منه موقفاً مغايراً، تطاول عليه واستعده أيضاً، لكن مصطفى صادق الرافعي لم يسكت له، وردّ عليه ردّاً ماحقاً في كتابه (على السفود)، والسفود كما هو معروف، أنه الشيخ الذي يستخدم للشواء. ولأنه دائماً يسير عكس الاتجاه، فقد وقف مع طه حسين حين أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي) هذا الكتاب الذي ولد عاصفة في حينها، ووقف الجميع ضد طه حسين، لكن عباس العقاد وقف معه يؤيده ويناصره. وربما لهذا، لم ينس طه

حسين له هذا الموقف، فرشحه طه حسين لإمارة الشعر، بل بايعه بإمارة الشعر بعد موت شوقي قائلًا: "ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبكم".

ولأنه أنكر ذات يوم إعجاز القرآن، وربما، فقط ليخالف مصطفى صادق الرافعي، عاد إلى رشده، وانتقل فيما بعد إلى موقع آخر، وصار يدافع عن القرآن والبيان، وعن الإسلام، وأصدر سلسلة عبقرياته المعروفة: الله. عبقرية محمد، عبقرية الصديق، عبقرية عمر، عبقرية عثمان، الإمام علي، عبقرية خالد، داعي السماء بلال، الصديقة بنت الصديق، أبو الشهداء، عمرو بن العاص، فاطمة الزهراء، الفاطميون، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

الفلسفة القرآنية، الإنسان في القرآن الكريم، مطلع النور، ما يقال في الإسلام، الديمقراطية في الإسلام، الإسلام في القرن العشرين.

لكن خصومه لم يغفروا له وأعدوا ذلك، تكفيراً عن الخلاف الذي نشب بينه وبين الرافعي بسبب أفكاره في البداية لإعجاز القرآن.

* * *

انخرط عباس محمود العقاد في السياسة مبكراً، ومما يذكر أنه لم يسع لمنصب ما. لكنه كان متقلباً، مشاغباً. وقف مع ثورة أحمد عرابي، وكان يطلق على زعيمها أحمد عرابي لقب (العبقري).

ثم وقف مع سعد زغلول، وكان يطلق عليه (الزعيم)، ثم وقف مع النحاس ثم مع النقراشي. ثم أيد ثورة تموز بزعامة جمال عبد الناصر. سُجن عباس محمود العقاد، ودفع ثمن موافقه، وهو يسجّل تجربة السجن في كتابه (عالم السدود والقيود). استمرت فترة السجن عشرة أشهر: من تشرين أول عام 1930 إلى تموز عام 1931.

يقول: "وخطر لي - وأنا أخطو الخطوة الأولى في أرض السجن - قول الفيلسوف ابن سينا وهو يخطو مثل هذه الخطوة: دخولي باليقين بلا امتراء وكلُّ الشك في أمر الخروج - فهو تقرير فلسفي صحيح للواقع!..".

ويُعدُّ العقاد أن دخول السجن هو يقين، أمّا الشك كلُّ الشك فهو في أمر الخروج. متى يكون وإلى أين يكون؟ إلى رجعة قريبة، من السجن وإليه؟ أم إلى عالم الحياة مرة أخرى؟ أم إلى عالم الأموات؟ "في تلك اللحظة عاهدت نفسي لئن خرجت إلى عالم الحياة لتكون زيارتي الأولى إلى عالم الأموات، أو إلى ساحة الخلد كما سميتها بعد ذلك - أي ضريح سعد زغلول".

يحكي العقاد في كتابه (عالم السدود والقيود) تجربته، معاناته، ومعاناة من معه، بأسلوب ممتع، وقد بدأ ذلك بوصف السجن الذي يطلق عليه (قره ميدان) - أي الميدان الأسود.

وكيف قضى ليلته الأولى في هذا السجن: "وكان لأبد لي من "فرجيل" يصاحبني كما صاحب الشاعر الإيطالي "دانتي" في طبقات الجحيم ليبدّله على أنواع العذاب ودرجات المعذبين. فمن هؤلاء

الجالسون القرفصاء؟ ومن هؤلاء المكبُّون على أربع؟ أهذا ضرب من العقاب في مكان العقوبات؟ وما بال أناس منهم يلبسون ثيابهم العادية على اختلافهم بين المعمم والمطريش ولايس "الطاقية" ولا يلبسون كأهل السجن؟ على أنني لم ألبث طويلاً حتى عثرت على الدليل الذي ينوب في جحيمنا عن فرجيل!"

وانشرح صدر العقاد عندما التقى زميله الصحفي علي أفندي شاهين الذي سجن في قضية مقالات ورسوم قذف بها بعض الوزراء وعلى رأسهم إسماعيل صدقي باشا كبير الوزراء في تلك الأيام. وقد فرح هو الآخر بلقائه.

ثم يتابع العقاد وصف السجن، والتهريب إلى داخل السجن التبغ والأكل، وحالهم والبق والبراغيث... الخ، كما ويتحدث بالتفصيل عن القراءة، وعن الصحف، لكن كانت المعاناة هي في إحضار القلم. "وأنت أيها القارئ الكريم - وراك الله - لا تعلم كما علمت أنا في السجن، أن دخول الجمل في سمّ الخياط أسير من دخول قلم" إلى حجرة سجين بإذن من مصلحة السجن".

ويفرد العقاد عنواناً للأخلاق. يتحدث فيه عن (أخلاق) المساجين. وعن المجرمين، والجنح الخ. ثم ينتقل إلى الوعظ حيث يأتي إلى السجن رجال دين مسلمون ومسيحيون، كل يعظ أبناء طائفته، ثم يتحدث عن الجريمة والعقاب، ويبدأ بالكاتب الإنكليزي سومرست موم ومؤهلاته الكثيرة في معرفة الطبيعة الإنسانية، ويأتي على ذكر بعض الشخصيات، ويصف أحدهم: مجنون يتنازعه السجن والبيمارستان - ومجانين آخرين.

ولكلّ مجنون ظرافته من وجهة نظر العقاد.

ويختم العقاد كتابه هذا بجولة على سجون بعض الدول ويسجل الفرق بين تلك السجون، حتى سجون سيبيريا، حيث ينام السجناء على أسرة خشبية، فيما ينام السجناء في مصر على البلاط.

* * *

في كتابه (مراجعات في الآداب والفنون) - وهو مجموعة مقالات في السياسة والأدب والاجتماع، وأثر السياسة والأدب وعلم الجمال في الحياة. ويضمّ الكتاب دراسات قيمة في الفكر، ويعرض رأيه في كبار الشعراء والكتاب، مثل: بشار بن برد، وابن الرومي، والمنفلوطي وسيد درويش، كما ويضمّ خواطر في الأخلاق، كذلك قصة (بائع القلوب) و(مذكرات إبليس: إغواء فتاة)، ويشرح الأسلوب، ويعرض للأساليب الإفرنجية والعربية والفرق بينهما. ويعرّج على علم الأخلاق، ويعرض رأي شوبنهاور في معنى الجمال. ويتطرق إلى كتاب (الغريال) لمخائيل نعيمة، وفي معنى الحرية يقول: "وقد أحببت أن أبين هنا ما أوردته بوحدة الفكرة في الحياة والفن فأقول أولاً: إن الحرية، في رأيي هي العنصر الذي لا يخلو منه جمال في عالم الحياة أو في عالم الفنون، وإننا مهما نبحت عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال في الحياة لا نجد هناك إلا مزية "حرية الاختيار" التي يفضل بها الإنسان الكامل من دونه من المرجو حين في صفات النفوس وسمات الأجسام، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء".

كتب عباس محمود العقاد رواية (سارة)، ويعتقد أنه كتبها عن مي زيادة. والتي يقال أنه أحبها، وكانت صاحبة صالون أيضاً. لكنها أحببت جبران خليل جبران.

وقد اشتهر العقاد بتأسيسه لمدرسة جديدة (مدرسة الديوان) مع إبراهيم المازني، وإبراهيم شكري. والتي عاكس فيها أمير الشعراء أحمد شوقي، وكان همّه تحطيم الأصنام ويقصد شوقي ومن حوله بحجة التجديد في الشعر، والخروج عن المؤلف والتلفيق أيضاً.

أما رأي العقاد في (القراءة) فقد لخصها قائلاً:

"ليس هناك كتاب أقرؤه، ولا أستفيد منه شيئاً جديداً، فحتى الكتاب التافه أستفيد من قراءته، أي تعلمت شيئاً جديداً هو ما هي التفاهة؟ وكيف يكتب الكتاب التافهون؟ وقيم يفكرون؟

ويقول:

"لست أهوى القراءة لأكتب، ولا أهوى القراءة لازداد عمراً في تقدير الحساب، وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة، وحياة واحدة لا تكفي، القراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة لأنها تزيد الحياة من ناحية العمق".

ومن أقواله أيضاً:

"أنا لا يهمني كم من الناس أرضيت، ولكن يهمني أي نوع من الناس أقنعت".

"كن شريفاً أميناً، لا لأن الناس يستحقون الشرف والأمانة. بل لأنك أنت لا تستحق الضعة والخيانة".

"أكثر المحامين صراحاً هو أبعدهم عن الحق، لأنك يكفي لكي نقول $2 + 2 = 4$ لست بحاجة لكي تصرخ، ولكنك في حاجة أن تصرخ وتتشنج إذا حاولت إقناعي بأن $2+2=7$ ".

* * *

كان عباس محمود العقاد يحتقر كل الألقاب، لأنه يرى نفسه أنه فوقها جميعاً، وكان يرفض أن يرافق اسمه أي لقب، لكنه يرضى أن يقال له: (الأستاذ)، فقط (الأستاذ): وكان يُهاجم على ذلك، ويقولون: كأنه الأستاذ وحده في مصر، ساخرين منه، من الألف لام (أل العهدية).

لكن العقاد لم يكتف، ولم يتراجع عن مواقفه، وعناده، إلا في قضية إعجاز القرآن وبيانه. ومما يؤخذ عليه أنه يقحم نفسه في كل شيء، مما جعل خصومه في ازدياد. ولهذا وصف بصاحب المعارك الثقافية، إلا أن مردّها كما يقولون تبدأ من مواقف شخصية.

كان العقاد لغوياً لامعاً، وقد اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بمصر عام 1940، كما واختير عضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في دمشق وبغداد. كذلك أطلق اسم العقاد على إحدى كليات الآداب في الأزهر.

ترفع العقاد عن المناصب، حتى إنه رفض الجائزة التقديرية التي منحها له عبد الناصر عام 1964 في العام الذي توفى فيه، كما ورفض درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة القاهرة، ولا يحمل سوى الابتدائية التي حصل عليها في بلدته.

عرف العقاد شطف العيش، والسجن، واضطهاد الحكام، وأقل ما يقال فيه أنه عاشق للمعرفة، عاش من قلمه وكتبه، ولكن وعلى الرغم، من أنه كتب أكثر من مئة كتاب، إلا أنه عاش فقيراً، ومات فقيراً.



مقدمة

بعد وفاة العقاد - رحمة الله عليه - كثر النقد للعبقريات منذ عام 1966 عندما أطلق عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين أول شرارة من هذا النقد في حديث أدلى به إلى التلفزيون معلناً فيه أنه لم يفهم "عبقريات العقاد"، كما وصفها بالغموض والتناقض.

ثم توالى النقد بعد ذلك، فمن قائل إن العقاد يتجه إلى الميتافيزيقيا أو ما وراء الطبيعة بدلاً من الاتجاه إلى الطبيعة والمجتمع... إلى قائل بأنه يبتسر التاريخ خدمة لأغراض محدودة على حساب الحقيقة الموضوعية.. كما قيل إنه يقدم أنماطاً غير إنسانية لا تتحرك إلا في عالم آخر غير عالمنا. وقد امتدحت العبقريات من بعض المفكرين كرد فعل لهذا الهجوم.

لكن الذي يسترعي النظر حقاً هو قلة التطبيق على كل تلك القضايا التي صدرت عن هؤلاء الناقدين. وتساءل البعض: هل في

العبقريات حقاً ما يؤيد صدق هذه القضايا حتى نضع أيدينا عليه، فنحكم بصحة أقوال هؤلاء أو أولئك؟ والذين صدر منهم هذا النقد رجال لهم مكانتهم الكبرى في عالمنا الفكري والأدبي، وقولهم يلفت النظر، وشدني إلى أن أستشير أستاذ محمد خلف الله أحمد في دراسة العبقريات، ورحب بالفكرة على أساس أن العبقريات تستحق الدراسة الموضوعية المنهجية.

وأقدمت على هذه الدراسة وأمامي "العبقریات" نفسها وما أثير حولها لأرى ما هو صواب وما جانب الصواب: هل العبقريات عمل تاريخي أولاً وقبل كل شيء حتى نقيسها بمقياس الأعمال التاريخية؟ ما السر في اقتصار العقاد على جوانب العظمة في العبقريات؟ وهل "العبقریات" وخصوصاً "عبقرية عمر" عصية على الفهم والتلخيص لاستخراج ما يريده العقاد؟ هل الشخصيات في العبقريات تتحرك في عالم غير عالمنا الذي نعيش فيه؟

وقسمت البحث إلى أربعة فصول في ظني أنها تجيب على الأسئلة السابقة:

الفصل الأول يبحث في الدوافع والأهداف التي قصدها العقاد من كتابة العبقريات، والفصل الثاني يتناول العبقريات بالعرض وإعطاء صورة مجملتها، والفصل الثالث يتحدث عن وسائل العقاد في رسم الشخصيات في العبقريات، أما الفصل الرابع فيبين مدى نجاح العقاد في الوصول إلى ما هدف إليه.

وجدير بالذكر أن البحث لم يتناول إلا العبقريات الإسلامية
الخمسة: محمد، وعمر، وخالد، وعلي، والصديق.
وبعد؛ فلعلي قد وفقت بعض التوفيق فيما تصديت له من بحث
والله الموفق.

رفعت فوزي عبد المطلب

29 من يونيو سنة / 1967

دوافع وأهداف

1 - العقاد لا يهدف إلى عمل تاريخي.

2 - ظروف العصر الذي نعيش فيه.

الخلاف بين رجال العلم والدين - نظرة الشيوعية إلى
العظماء - العصر الحديث ومزايا الشخصية - مبادئ
المساواة في العصر الحديث - غرور الناس بطرائف
العصر - منهج آخر لتناول الشخصية - عصر عبادة
القوة الطاغية - تبرئة المقام المحمدي - الثقافة التي
يؤسس عليها المجتمع العربي بنائه - دعاة الآرية
والسامية.

تأكيد لا انفعال - الموازنات بين الماضي والحاضر -
الاقتصار على تصوير العظمة في الشخصية - الاتجاه
إلى كتابة تاريخ الشخصيات الإسلامية.

العقاد لا يهدف إلى عمل تاريخي

قبل أن نبين هدف العقاد من كتابة العبقريات الإسلامية والدوافع التي حدثت به إلى أن يتناول الشخصيات الإسلامية بالبحث والدراسة - هناك ملاحظة ينبغي أن نلتفت إليها ، هي أن العقاد لم يكن يهدف إلى أن يكتب دراسة تاريخية عنهم ، تبين متى ولدوا.. كما تبين الأَطوار التي مرت بها كل شخصية ، مركزة على الترتيب الزمني أو التوثيق التاريخي القائم على الموازنة بين النصوص التاريخية لاستخلاص الصحيح من المزيف منها.

وقد نبه العقاد إلى ذلك بأكثر من مرة في المقدمات التي صدر بها العبقريات⁽¹⁾ ولعل الكلمات التي قدم بها كتابه "عبقرية الصديق" أكثر صراحة وأوضح دلالة على هذا المسلك ، حيث يقول: "في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أول ما قلته في "عبقرية محمد" و"عبقرية عمر" وكل كتاب من هذا القبيل،

(1) العقاد : عبقرية محمد - ص12 ، 13 - عبقرية عمر - ص7 ، 8.

وفحواه أنني لا أكتب ترجمة للصدّيق رضي الله عنه، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره. ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع، ولا بالأخبار من حيث هي أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد للقارئ بها ويوجه استطلاعها بها، ولكنما قصدت أن أرسم للصدّيق صورة نفسية تعرفنا به، وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح من هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره، وهي قد تكبر أو تصغير فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالاته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته، بل لعل الكلمة الموجزة التي تجيء عرضاً في بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبرها وصغيرها في مقياس التاريخ"⁽¹⁾.

فهذا النص يبين بوضوح أن صاحب العبقريات لم يقصد الكتابة التاريخية وهدفه الحقيقي أمر آخر تناول من أجله الشخصيات الإسلامية.

والمتصفح للعبقریات - في غير المقدمات - ربما يتضح له هذا، وإلا فما الذي يدل عليه قوله في "عبقرية الصدّيق": "وقد شك بعض المؤرخين من الأوروبيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل إلا أن الدليل الذي يغني عن وثائق التاريخ أن

(1) عبقرية الصدّيق - ص3.

أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله"⁽¹⁾، إن أوضح دلالة لهذا النص أن العقاد قد يرجح دليلاً ما على وثائق التاريخ، وهذا غير عمل المؤرخ الذي لا دليل له إلا الوثائق التاريخية والنقوش والآثار.

ونكون مخطئين لو لم ندرك هذه الملاحظة فنحاسب العقاد كما نحاسب المؤرخين عندما ننقد هذه الأعمال، ونصف أسلوبه بأنه أسلوب انفعالي في كتابة التاريخ والسير، وبأنه نأى عن المنهج العلمي السليم "إذ المؤرخ ليس من اختصاصه أن يوزع موازين العدالة بالشكل الذي يريد، ولا أن يغلب انفعالاته في الحكم على الأحداث والشخصيات"⁽²⁾.

(1) عبقرية الصديق - ص 92.

(2) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، الهلال، إبريل سنة / 1967 - ص 116.

ظروف العصر الذي نعيش فيه

والآن ما الدوافع التي دفعت العقاد إلى الكتابة عن العبقريات الإسلامية؟ وما هدفه من وراء ذلك؟

يجمع هذه الدوافع ظروف العصر الذي نعيش فيه والتي امتدت جذورها إلى القرن الثامن عشر، نتيجة للتطورات الاجتماعية التي حدثت منذ ذلك الحين، هذه التطورات أدت إلى عدم الثقة في القيم التي كانت تتخذ ستاراً يختفي وراءه الذين يعرفلون التطور والإصلاح، وهم رجال الدين وأصحاب الامتيازات الطبقية... لكن الأمر تجاوز عدم الثقة في مثل هذه القيم إلى هدم كل ما هو قديم... حتى ولو كان هذا القديم مما يتحتم على الإنسانية أن تأخذ به، وتجعله مناراً يهديها في سيرها نحو التقدم والرفق.

وقد تحدث العقاد عما وصف بأنه خلاف بين رجال العلم ورجال الدين إذ عارض بعض الأخيرين تقدم العلوم، وحكموا على المشتغلين بها بالكفر بدعوى أنها ليست من الدين في شيء.

وظن بعض الناس أن الدين يدعو إلى الجمود، ويعارض تقدم العلم وظهور المخترعات ورأى البعض أن كل رجال الدين هكذا: يقفون ضد التقدم والإسلام "وخلطوا بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في الإصلاح، ونهضت بهم الدنيا كلها، وبين هؤلاء الذين استغلوا العقائد، وتعمدوا إنكار الحقائق، ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والإصلاح"⁽¹⁾.

وفي رأي العقاد أن "المصلحين من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث بل يذكىهم ذلك، ويضاعف حقهم في الثناء وعرفان الجميل"⁽²⁾ كما لا يعيبهم أن جاء أناس ادعوا أنهم رجال دين مع أن الدين منهم براء، ولهذا لزم التنويه بفضلهم، وإبراز دورهم في خدمة الإنسانية بأسلوب يرد وهم الواهمين ويزيل خلط الجاهلين. ويبين أنهم خدموا الإنسانية خدمات جليلة. وحاجتها إليهم لا تغني فيها علوم العلماء⁽³⁾.

ويقول العقاد: ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه وأن تعظيم الأبطال الغابرين يصرف الناس عن النظم الاجتماعية التي أنشأت أولئك

(1) عبقرية الصديق - ص6.

(2) المصدر السابق - ص6.

(3) المصدر السابق - ص6.

الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين، أو على غير قصد منهم وتديير"⁽¹⁾.

لكل هذا دافع العقاد عن العباقرة ليبرد الحق إلى نصابه، ويزيل الغبار الذي يلحقه أمثال هؤلاء بالعظماء.

كما رأى العقاد أن العصر الحديث أفنى مزايا الشخصية الإنسانية، ولم يتح الفرصة لظهور الروح الخالد في الذين امتازوا بالعبقرية كي يكونوا منارة للأجيال التي تعيش معهم في هذا الزمن فيري: أن التخصص في ناحية من نواحي المعرفة والانحصار فيها، وكذلك الكثرة العددية، وقد امتاز بهما عصرنا كانا هما السبب في إفناء مزايا الإنسان.

أما التخصص فلم يظهر إلا جزءاً من الإنسان حين ينحصر في جزء من المعرفة هو مدار تخصصه "وليس أضر ولا أوخم من هذه التجزئة في الزمن الذي ولدت فيه الفكرة العالمية وأصبحت علاقة الإنسان بعضه ببعض حقيقة متمكنة تتطلب الإنسان كله للمساهمة فيها، ولا تقنع منه بجزء ناقص محبوس في أصداف المحار"⁽²⁾.

(1) المصدر السابق - ص7.

(2) عباس العقاد: بنجامين فرانكلين - ص14.

أما الكثرة العددية فقد تاهت الشخصية الإنسانية في بحرها الزاخر، وهذا كان جوراً فوق الجور الذي ابتليت به من داء التخصص والانحصار⁽¹⁾.

دفع هذا العقاد إلى تصوير الشخصية الإنسانية التي أسهمت جوانبها المتعددة في عصرها، وأنها لقادرة على إلهام عصرنا بما يشفيه من جور الأفتين السابقتين وبما يشيع فيه النور والهداية والأمان، وهو في أشد الحاجة إليها جميعاً.

وامتاز عصرنا بشيوع المساواة والحقوق العامة وهذا "أغرى أناساً من صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز. وتظلمهم المساواة... وقد جار هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين. كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين⁽²⁾". إذن فليقم العقاد البراهين التي تثبت أن هؤلاء خصوا بميزات لم تتناول إلى علاها ميزات الأكثرين.. وأن العباقرة وهبوا من الصفات ما يندر اجتماعها في غير العباقرة...وبذلك يكون امتيازهم واضحاً، وينجلي الصبح لذي عينين.

وقد اغتر أناس بطرائف هذا العصر، واعتقدوا أنه "أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء حتى في ملكات النفوس

(1) المصدر السابق - ص 14 - 15.

(2) عبقرية محمد - ص 13 - عبقرية الصديق - ص 6.

والأذهان، وهي مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم⁽¹⁾، فالإنسانية منذ أن ولدت تتقدم صاعدة في درج التقدم والحضارة وكل يجب يبدأ من حيث انتهى الجيل السابق معتمداً عليه، وفي كل جيل نرى القادة الذين يرتادون الطريق، ولهم الفضل على كل من يأتي بعدهم، باعتبار أنهم أسهموا بخطواتهم على الطريق، كما وضعوا الأساس الذي بنى عليه اللاحقون.

وهناك من يترجمون للعظماء ويتناولون الشخصية الإنسانية وسلوكها على طريقة التحليل العلمي والمقاييس المنطقية فما وافق منها ذلك أقروه، وما خالفه رفضوه، ويرى العقاد أن كثيراً من العظائم الإنسانية لا تقاس على هذا النحو، بل لا بد من منهج آخر لتقويم الأعمال التي تصدر عن تلك الشخصيات ذلك المنهج الذي يفسر مثل هذه الأعمال ويوضحها "فليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاؤون، وليقل أصاب القياس المنطقي ما يحبون، فشاؤوا أو لم يشاؤوا، وأحبوا أو لم يحبوا، لقد تم بغير التحليل العلمي، وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الإنسان"⁽²⁾.

ولقد أدان العقاد عصرنا الذي نعيش فيه ووصفه بأنه عصر "عاشت فيه عبادة القوة الطاغية، وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان، فإذا فهمنا عظيماً واحداً كعمر بن الخطاب فقد

(1) عبقرية محمد - ص13-14.

(2) عبقرية الصديق - ص53-54.

هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلاً كان غاية في البأس، وغاية في العدل، وغاية في الرحمة وفي هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفي من ليس بميتوس الشفاء"⁽¹⁾.

ودافع أخيراً بأن عنه العقاد في "عبقرية محمد" وهو "تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يُلغَطُ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية"، ولهذا كان أطول الفصول في "عبقرية محمد" الفصلين اللذين شرح فيهما موقف محمد (ﷺ) من الحرب ومن الحياة الزوجية لأنها "مثار اللغَط" في كل ما رده سفهاء الشائئين من الأصلاء والمتقدمين في هذا الباب"⁽²⁾.

ومن الدوافع التي لم يذكرها العقاد رد الفعل لاعتقاد البعض أن الثقافة الأجنبية برجالها يمكن أن تكون بديلاً عن الثقافة الإسلامية العربية وقد شاع هذا الاعتقاد في النصف الأول من القرن العشرين وما زال يؤمن به بعض المفكرين إلى الآن، وتصدى العقاد للرد على هؤلاء كما تصدى غيره من مفكري تلك الفترة من أمثال طه حسين وهيكل وأمين الخولي"⁽³⁾.

ويقول البعض: إن العبقريات كانت "رد فعل طبيعي على دعاة الآرية والسامية أولئك الذين يحاولون أن يجردوا العقلية العربية من

(1) عباس العقاد: عبقرية عمر - ص58.

(2) عبقرية محمد - ص12.

(3) عبد المنعم شمس، مجلة اليمن الجديدة، عدد 23 مايو 1967 - ص70، 75.

كل قدرة على الخلق والإبداع بدعوى أن الجنس السامي عاجز عن الإبداع الفكري والفلسفي قادر على الأخذ دون العطاء"⁽¹⁾.

وفي العبقريات ما يثبت أن العقلية العربية متمثلة في محمد (ﷺ) وأبي بكر وعمر وعلي وخالد قادرة على الخلق والإبداع.

والعقاد يدافع عن العظمة أياً كان معدنها سواء من الجنس السامي أو من الآري "فالقاعدة في اختيار ترجمة ما للكتابة فيها أن تكون كتابتها لازمة لإبراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة، وتستوي في ذلك سير العظماء والنوابغ من كل طراز، وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ"⁽²⁾.

ويخيل إلي أن العقاد كان يريد أن يبتعد بأي قارئ عن التعصب أو النظر من خلال العنصر عندما يقرأ العبقريات، كما كان يبعد القارئ عن الناحية الدينية حتى يقتنع بإنسانية مترجميه. وهذه الأسباب التي تحجب عنا شذى العبقرية يرى العقاد أن الانسياق وراءها والعمل بأقوال أصحابها معناه أننا ننكر الحياة ونجردها من كل معنى، ويصبح الموضوع موضوع الحياة نفسها: "هل تستحق أن نحياها؟.. فإن كانت حياة الإنسان أهلاً للثقة بها

(1) جلال العشري، العقاد والأيدولوجية الإسلامية، مجلة الإذاعة 25 - 3 - 1967.

(2) عباس العقاد: موضوعي كيف أختاره، مجلة قافلة الزيت، يونيو - يوليو 1962 - ص2، 41.

والإيمان بقدرها فالجواب: نعم، وإن لم تكن كذلك فلا جواب
للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال"⁽¹⁾.

ومن يضع هذه الدوافع أمامه عندما يقرأ العبقريات يتضح له
السّر في أمور أخذ بعضها على العقاد مع أنها كانت نتائج طبيعية
لتلك الدوافع وفهمه لظروف عصره التي سيطرت عليه وهو ينتج
هذه الأعمال:

لقد قيل: إن العقاد ينفعل في كتابة هذه التراجم عن العظماء
وهذا يتنافى مع الكتابة التاريخية التي ينبغي أن تخلو من هذا
الانفعال.

والحق أن العقاد وجد - كما رأينا - أنه أمام خصوم ينبغي أن
يقتنعوا بالكثير من الأدلة، ويقتنع من ورائهم أولئك الذين ينساقون
وراء كل طريف ويجرون وراء كل مستحدث، فأكثر من البراهين
التي تثبت رأيه في فكرة من الفكر، أو في مشكلة من المشاكل
التي يعالجها في هذه الكتب.. فالعقاد في موقف دفاع و"رد اعتبار"
لهؤلاء العباقر الذين ظلمهم العصر بملايساته السابقة، وجد
فضلهم أبنائهم، فساروا وراء كل باطل، وأنكروا فضل هؤلاء
العظماء.. فهذا هو الخطر الذي يجب أن يزال، وهذه هي الآفة التي
تهبط بالخلق الإنساني إلى الحضيض فلا بد من إيراد الحجة ولو

(1) عباس العقاد: عثمان بن عفان - ص8.

الحجة، والإلحاح في إزالة ما أثير حولهم من غبار ومهاترات هي في أعلى درجات الظلم والإنكار.

ومع هذا الانفعال الذي رؤي في عبقرياته، لم يحد عن الحق، ولم يلق دعوى من غير برهان، بل أيّد كل ما قاله بشواهد من التاريخ، وبرهن على كل صورة صور بها عظمة الشخصية التي كتب عنها، وأولى بنا إنصافاً للرجل أن نسمي هذه النزعة وهذا المسلك "تأكيداً" لا انفعالاً، فهذا هو الذي يدل تمام الدلالة على أسلوبه الذي كتب به العبقريات.

كذلك يتبين لنا بعد الوقوف على الدوافع التي سقناها السر في الموازنات الكثيرة بين الماضي والحاضر، وبين عظماء ادعى أنهم أتوا بجديد مع سبق غيرهم له على نحو أتم وأكمل، ليوضح أن هذا العصر لم يأت بجديد إذا قورن بنتائج ما قدم هؤلاء العظماء من أعمال، وما قاموا به من جهود لخدمة الإنسانية، وما أقاموا من مثل عليا خالدة لا ينسخها عصر من العصور، ومن هذا مقارنة بين محمد (ﷺ) ونابليون الذي شهد له العصر الحديث بالبطولة العسكرية والتفنن في الأساليب الحربية⁽¹⁾، وكذلك في فصلي عمر والحكومة العصرية⁽²⁾. والصديق والحكومة العصرية⁽³⁾،

(1) عبقرية محمد من ص 47 إلى 52.

(2) عبقرية عمر - ص 189.

(3) عبقرية الصديق - ص 152.

وليس معنى هذا أنه يحكم بمقاييس الماضي على الحاضر أو يخلط بين زمنين مختلفين بل كثيراً ما ينبه إلى أن كل زمن له مقاييسه وأحكامه⁽¹⁾، لكن هناك الفكرة التي قد تبقى وإن لبست أثواباً مختلفة باختلاف الزمن، وهذا هو ما يعنيه⁽²⁾.

ولأن العقاد يهدف إلى تصوير العبقرية الإنسانية وإبرازها اقتصر على تصوير العظمة في الشخصية التي يكتب عنها، ويبرر الخطأ إذا وقع من العبقرى على نحو لا يفض من عبقريته، وليس هدفه - كما يقول - أن يبين ما لا يملكه الشخص العظيم، ولا وجهته أن يبين المآخذ عليه، وإن كان هذا من العسير بمكان بالنسبة للعبقریات، وقد أوضح هذا في "عبقرية الصديق" بقوله: "ومذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقهم من التوقير، وأن نرفع صورهم إلى مكان التجلة، وإن لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الوصف والتصوير...، ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة، لأن الأسباب التي تغض من أسباب الغلبة لم تزل تتكاثر من القرن الثامن عشر إلى الآن، وهي مما يحدث عفواً في بعض الأحيان، ومما يأتي قصداً في أحيان أخرى"⁽³⁾.... "فكل

(1) عبقرية عمر من ص190 إلى 192.

(2) عبقرية الصديق - ص172.

(3) عبقرية الصديق - ص5.

فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلة لا نزاع فيها، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال، وما من عمل لم يعمله قلنا إنه قد عمله... ثم يتوسمه القارئ بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله⁽¹⁾.

ويتعرض في هذا الباب لمسلك الكتاب الذين يخافون أن يتهموا بالمبالغة عندما يعرضون وجوه العظمة في العظماء، فيشفعون كل فضيلة بنقيصة تعادلها ويقرنون بين الثناء والملام، ويسترسلون في الحسنات بقدر لينتقلوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها، فإن لم يفعلوا ذلك، اعتقدوا أنهم مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام⁽²⁾.

كما يعرض أيضاً للآفة التي انتشرت في عصرنا وتحتم على المصابين بها ألا يصدقوا ما تواتر عن العظماء من أعمال جلييلة ويرون أن البراعة في تكذيب هذه الأنباء، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق⁽³⁾.

والعقاد ليس مثلهم، وحسبه ألا يفوته الصدق في تقدير ثروات النفوس التي يتناولها بالتصوير، ويصل إلى هدفه من كشف

(1) المصدر السابق ص4.

(2) عبقرية عمر - ص5.

(3) عبقرية الصديق - ص48.

الوهم، وإزالة الجور الذي ألحقه العصر بأمثال هؤلاء العظماء،
وتبنيه المغترين الذين اغتروا بزمانهم وما فيه من طرائف تقضي على
القديم والقدماء.

ومن بعض هذه الدوافع يتبين لنا السر في التحول الذي لوحظ
على العقاد وغيره من مفكرينا إلى الكتابة عن الشخصيات
الإسلامية.. فالعقاد وغيره آمنوا بأن التراث الإسلامي يمكن أن
يثري حياتنا ويوجهها الوجهة الصحيحة ولقد أبان عن هذا التحول
الدكتور محمد حسين هيكل في قوله: "وقد حاولت أن أنقل لأبناء
لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذها جميعاً هدى
نبراساً، ولكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته،
فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه،
وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعنة موئلاً لوجي هذا
العصر ينشأ فيه نشأة جديدة فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد
قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة
جديدة فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت
ويثمر.. فيه حياة تحرك النفوس، ويجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا
الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة
لتؤتي ثمرها بعد حين.⁽¹⁾

والآن ما الصورة التي رسمها العقاد لهؤلاء العباقرة؟ هذا ما
سنتحدث عنه في الفصل التالي.

(1) د. محمد حسين هيكل عن اليمن الجديدة ص74، 75.

صور العباقرة

1 - عبقرية محمد

علامات مولد وبشائر رسالة - قائد ملهم - عبقرية محمد السياسية - عبقرية محمد الإدارية - محمد البليغ - محمد الصديق - محمد الرئيس - محمد الزوج - محمد الأب والسيد - محمد العابد - محمد الرجل - محمد في التاريخ.

2 - عبقرية عمر

عمر وليد الدعوة المحمدية - صفات عمر - مفتاح شخصيته - اسلام عمر - عمر والدولة الإسلامية - عمر والحكومة العصرية - عمر والنبي - عمر والصحابة - ثقافة عمر - عمر في بيته - صورة مجملته.

3 - عبقرية خالد

نشأة خالد - اسلامه - سيف من سيوف الله - مفتاح شخصيته - خالد في ميدان العزل.

4 - عبقرية الإمام

صفات الإمام - مفتاح شخصيته - إسلام الإمام - الإمام وعصره -
البيعة - سياسة الإمام - حكومة الإمام - الإمام والنبى
والصحابه - ثقافة الإمام - الإمام في بيته.

5 - عبقرية الصديق

نشأة الصديق - الخليفة الأول - صفات العظماء - الإعجاب
بالبطولة - أول المسلمين - مؤسس البناء الشامخ - حكومة
الصديق - الصديق والنبى والصحابه - ثقافة الصديق - الصديق
في بيته - نهايته في حيز المجد والتاريخ.

عبقرية محمد

صور العقاد - رحمه الله - عظمة كل عبقرى فى كتاب (1) ..
لكن الذى يقرأ الكتاب سيخرج بالصورة واضحة مفهومة يمكن
تلخيصها فى صفحات دون إخلال بها لأن الباقي من الكتاب تحليل
لكل جانب من جوانب الصورة... أو موازنة بينها وبين صور غيرها
من العظماء.. أو دفع ما يفتريه المفترون مما يناقض التصوير
الحقيقي.. أو تدليل على ذلك التصوير من شواهد التاريخ الواقعة ،
وحقائق علم النفس أو الأخلاق.

ومحمد (ﷺ) فى كتاب العقاد وجد فى عالم يتطلع إلى نبي..
وأمة تتطلع إلى نبي.. ومدينة تتطلع إلى نبي.. وقبيلة وبيت أصلح ما
يكونان لإنجاب ذلك النبي.. ثم ها هو ذا رجل لا يشركه رجل آخر
فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية فى المدينة.. وفى
الجزيرة.. وفى العالم بأسره. قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا

(1) رتبنا العبقرىات تبعاً لتواريخ صدورها الأول فالأول.

في حاجة إلى رسالة.. وقالت حقائق التاريخ: لقد كان (ﷺ) هو صاحب تلك الرسالة:

... ومحمد مع كل هذا مستكمل للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ:

كانت له فصاحة اللسان واللغة.. وكانت له القدرة على تأليف القلوب، وجمع الثقة.. وكانت له قوة الإيمان بدعوته، وغيرته البالغة على نجاحها.. وعلى هذا ندرك السر في نجاح دعوة الإسلام، لأنها طلبتها الدنيا.. ومهدت لها الحوادث وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه، وموافقة أحواله وصفاته.

وانتقل المؤلف إلى جانب آخر من جوانب الصورة وهو عبقرية محمد العسكرية فأوضح أنه عليه السلام كان قائداً ملهماً.. خبيراً بتجنيد بعوث الحرب، وبعوث الاستطلاع.. خبيراً كذلك بتجنيد كل قوة في يديه متى وجب القتال: إن قوة رأي وإن قوة لسان، وإن قوة نفوذ.. وما نعرف أن أحداً وجه قوة الدعوة توجيهاً أسد ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام.

وإذا كانت شجاعته عليه السلام تنفي رقة الضعف والخوف المعيب فيه فحياته كلها من طفولتها الباكرة تنفي الشبهة في القسوة والجفاء.. وهذا من خصائص العظمة النبوية في محمد (ﷺ)، فعبقرية محمد في قيادته عبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس وترضاها الحضارة في أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء.

وتجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تجلت في قيادة الجيوش، فكان على أحسن نجاح في سياسته يوم أن نادى بعزيمة الحج في عام الحديبية.. وحين دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته تلك.. وحين توخى ما توخى من طريقة المسالمة، وإقامة الحجة في إنفاذ عزمته.. وحين قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته.. وإذ نظر إلى عقباه، ووصل به إلى القصد الذي توخاه.

ومحمد (ﷺ) مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين.. مدير حين تكون الإدارة تدير أمور.. ومدير حين تكون الإدارة تدير شعور، وهو كفيل ألا يلي مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظام والتبعية، والاختصاص والسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال، ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال أو لخطأ في إدارة الأعمال.

ومن جوانب العظمة في محمد (ﷺ) بلاغته فالسمة الغالبة على أسلوب النبي في كلامه هي سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين.. فلا كلفة ولا غموض ولا إغراب في كلامه (ﷺ)، ولا زخرفة ولا حيلة ولا مشقة متعمل في ابتغاء التأثير، وكل كلمة تصل إلى سامعها.. وكل كلمة مقصودة بمقدار.. ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبي أسلوباً عصرياً يقتدي به المعاصرون في زماننا هذا وفي كل زمان.. لأن الأسلوب الذي يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصري في جميع العصور.

وإذا كانت أداة الصداقة تتم بالعاطفة الحية والذوق السليم والخلق المتين فقد كان (ﷺ) في هذه الخصال جميعاً مثلاً أعلى بين صفوة خلق الله وكل هذه المزايا النفسية جعلته يظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس، ولم يعرف عن إنسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذي أحيط به هذا القلب الكبير.

وقد كان لمحمد (ﷺ) الحق الأول في كل ذريعة من ذرائع السلطان: كان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به أكفأ كفاء وأوقر مهيب، ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر بسلطان الصديق الأكبر، سلطان الحب والرضا والاختيار.

ومن الجوانب التي تجلت فيها عظمة محمد (ﷺ) موقفه من المرأة عامة، ومن زوجاته خاصة، فالتاريخ يشهد أنه عاملهن المعاملة الطيبة في مثلها الأعلى: معاملة لم تتبدل بعد أيام أو شهور بل طالت مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وفي جميع الحالات، ومنها حالة الألم البالغ، ولا تتحصر في حالتي الرضا والطمأنينة.. وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج في العصر الذي وصفوه بعصر المرأة لفرط ما أظنبت فيه المطنبون من إكبار شأنها، والدعوة إلى إنصافها، وقد كانت حياته الزوجية لا تقوم على الحس والمتعة، ولن تدوم كما دامت لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس، وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم.

ومع أبوة محمد (ﷺ) الروحية العالية حيث يتكفل بتربية الأرواح في أمته على مدار الزمن نجد أن للناحية النوعية الحظ الكبير عنده لدرجة أنها تتكافأ مع الأبوة الأولى، فمحمد الأب كان أصلح الآباء: كان مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء.. مثال الأب حيثما له نسل قريب أو بعيد.. ذكر أو أنثى صغيراً أو كبيراً.

أما معاملته لمن هم دونه من الخدم والعييد فقد شملتهم رحمته الأبوية التي شملت كل منتم إليه.. وكثير من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيراً من المعاملة التي ظفر بها خدم محمد وعبيده، وقد جعل الخدمة على سنته ضرباً من توزيع الأعمال أو ضرباً من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدييره وقضاء شؤونه، وهذا البر بالخدمة أكرم وأنقى للهوان من البر بالخدم.

وقد تهيأ محمد للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه ومن هنا كان (ﷺ) عابداً قبل كل شيء.. ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله وكل سجية فيه.. لكن عبادة محمد لم تكن كعبادة النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة، ولم يكن تفكيره في الكون والحياة ليوغل به في الفروض ومذاهب الاحتمال، بل هو تفكير للوصول إلى الإيمان.. ورسم طريق الوصول إلى ذلك بقوله: تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله.

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة يفيد أن النبي (ﷺ) كان مثلاً نادراً لجمال الرجولة العربية.. كان كشأنه في جميع

شمائله مستوفياً لهذه الصفة من جميع نواحيها: فقد استوفى شمائل
الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس.. ومع نهوضه بعظائم
الأمر، بل بأعظمها جداً ووقاراً استراح إلى الفكاهة وكان
يتفكه كما كان يستريح إليها.. وكان قدوة فيما يتناول الطبع
السليم والذوق الحسن، فلم يكن يهفو في حق أحد، ولم يكن
أحد يشكو من محضره بإنصاف، وذلك هو ملاك التهذيب
الكامل في أصدق معانيه.

وقد أثرت عظمة محمد ﷺ تأثيراً كبيراً في المستقبل
وأحداثه، والتاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله، وإن
حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع
لولا ظهور محمد وظهور عمله.

عبقرية عمر

عمر بن الخطاب، الذي عرفه تاريخ العالم، وليد الدعوة المحمدية دون سواها؛ بها عرف، وبغيرها لم يكن ليعرف في غير الحجاز أو الجزيرة العربية، فقد عرف صاحبها ﷺ كوا من العظمة في عمر فبعثها وادخرها للوقت المناسب لها...

كان ﷺ مهيباً رائع المحضر حتى في حضور النبي ﷺ الذي تتطامن عنده الجباه وأولها جبهة عمر، وكان فيه الكثير من علامات العبقرية النفسية والخلقية التي وصل إليها علماء النفس بعد طول التجربة: كان طويلاً يمشي كأنه راكب، وكان أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكان كما وصفه غلامه: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدي الله وكان جياش الشعور مفرط الحس، كما كانت له فراسة عجيبة يعتمد عليها، وهو متفائل يعتد بالرؤيا والشعور على البعد أو "التبائي" كما يسميه النفسانيون المعاصرون.

وكان ﷺ قوياً عادلاً رحيماً غيوراً فطناً وثيق الإيمان عظيم الاستعداد للنخوة الدينية وتعددت روافد هذه الصفات إلا أنها سارت لغاية واحدة وهدف واحد هو نصر الحق وخذلان الباطل.

وقد تركبت هذه الصفات في تركيبة واحدة يعاون بعضها البعض الآخر ولكنها لا تتناقض؛ فكان بأسه معواناً لرحمته، وكانت غيبرته معواناً لعدله.. وكان قوياً لينتزع الناس بقوته، ولم يكن قوياً ليطنغى بقوته على الضعفاء.

وهذه الصفات مطبوعات فيه يختلطن بكل ما عمل وقال، كما كانت تتوازي فلا تغلب إحداها الأخرى، وإن ظهرت كل منها في أسمى آياتها ومثلها الأعلى، حتى كأنها لم تعهد في غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها.

وشخصية عمر هي أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحاً لمن يبحث عنه، وطبيعة الجندي في صفتها المثلى هي أصدق مفتاح للشخصية العمرية، فلا تعرض عملاً من أعمال الفاروق العامة أو الخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قراراً فيها ووجدت عليه صبغة منها.. وخصائص هذه الطبيعة تتجمع في عمر فهو الشجاع، الخشن المطيع، الغيور على الشرف، السريع النجدة، المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكل بالإنجاز، العارف بالتبعات والمسؤوليات.

ولم يكن بين عمر والإسلام إلا باب واحد للعداء وهو أنه رجل قوي غيور عزيز في قومه فإذا رجل يخرج عليهم فيفرق - كما قال -

أمر قريش، ويسفه أحلامها، ويعيب دينها فلا جرم يثور ويغضب وينقم، ولا عجب يدافع عن ذماره وشرف آبائه.. لكنه باب لا يطول مدخله في نفس طبعته على العدل والإنصاف، وما من سبب يصل بين الجاهلي الشريف وهذا الدين الجديد إلا كان موصولاً بنفس عمر أوثق صلة: فقد أخذ ببلاغة القرآن وهو البليغ، الحسن النقد للبلاغة.. ولم يسترح إلى فساد الجاهلية وهو المستقيم الطبع المفطور على الإنصاف... كما كانت النزعة الدينية وراثية في أسرته.. وزاده على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكاة.. وكان يستطلع الرؤى والمنامات.. ويتصل بالغيب ويبصر على البعد.. وكلها أسباب أدخلت أناساً في الإسلام.. وإذا انفتحت أمامه هكذا فباب واحد موصل لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين.. وقد تفتحت هذه الأسباب فإذا العالم الإنساني قد تفتحت فيه صفحة جديدة، جاهلي كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنساني كله إلى آخر الزمان.. وأصبح الحق والعدل طبيعة حياته حتى حاسب نفسه على إيذاء المسلمين قبل أن يسلم، فزج نفسه وسط العدوان؛ ليبتلي، ويقتص منه ما فعله بالمؤمنين.

ونهج عمر طريقه في الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام: كلاهما طريق صراحة وقوة لا يطيق اللف أو التلطيع، ولا يحفل بغير الجد الذي لا عبث فيه: فلا وهن ولا رياء ولا حذقة ولا ادعاء، وما شئت من إسلام قويم فهو إسلام عمر.. وكانت شجاعته في دينه أندر الشجاعات في النفوس الأدمية؛ لأنها الشجاعة التي يواجه بها

الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع.. وكان إيمانه بصيراً لا يهجم به على عمياء ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيلة والأخذ بالأسباب.. كذلك لم يكن يؤمن بشيء ينفع أو يضر غير ما عرفت أسباب نفعه أو ضرره.. وكان أعلم الناس أن الطيبات حلال، وأن النهي عن الحلال تنطع في الدين يأباه الإسلام وإن كان متقشفاً في حياته وفاء لذكرى صاحبه الذي خلفه على المسلمين، وتنزيهاً عما ليس بحق له من بيت مال المسلمين.. وكان مسلماً شديداً في إسلامه.. لكن شدته لم تكن خطراً على الناس، بل كانت ضماناً لهم ألا يخافه مسلم ولا ذمي ولا مشرك في غير حدود الكتاب والسنة، وضمان أمن الدولة الإسلامية.

وقبل أن يقال: إن عمر كان أكبر فاتح في صدر الإسلام ينبغي أن يقال: إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان: كان مؤسساً لها قبل أن يلي الخلافة، وينفرد بالكلمة العليا، وكان من يوم إسلامه أخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء وكل عمل عمله هذا الباب يدل على أنه "مؤسس الدولة الملهمة": من تجنيد الجيوش لشتى الميادين، واختيار القواد على حسب ما يندبون له، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم ليستقصي أخبارهم، ويعرف ما يقابلهم من الكيد والعدة، وإنشاء المدن والعمائر في مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكاياتهم ولو جاءت في غير أوانها،

والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغي لها ، والمشاورة ممن تسمع منه المشورة والاجتهاد بالرأي عندما تختلف الآراء ، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه ، وخدمة الناس في دينهم ودنياهم.. وإقامة دستور في شؤون القضاء قائم على العدل المحكم في الجزاء ، والفصل في الحقوق ، وإقامة اشتراكية اقتصادية لا تلغي الفوارق في الشؤون الاجتماعية.. وجيل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع بالإشراف والمراجعة ، ولم يعمل بيديه كأنه خادم البيت المرهق ، وأجير الديوان الصغير: كان يكبح بيديه ويحمل على ظهره ويتعقب بعينه.. وأكبر ما يستحق الإكبار في هذا الرجل أنه كان قادراً على تأسيس الدول ، وعلى فتح الأمصار لكنه راض القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار.

وإذا قسنا نظام حكم عمر بنظم الحكم في زماننا فإننا سنجد كثيراً من المستغريات التي تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى ، لكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تزول الغرابة ، وترى في مكانها الحق الخالد الذي تتغير العصور ولا يتغير ، بل نرى أحياناً ما يصلح منها كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هذا العصر الأخير.

وقد كان عمر رضي الله عنه يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو بصغير فيما خلا ذلك في نظر نفسه ونظر الناس.. وإن وجدنا منه تصاغراً فلأنه يشعر بعظمته ، ويكبح ما يخامر من اعتداد نفسه.

وهذا الإعجاب عنده لم يكن يلغي شخصيته أو يهددها بالفناء والزوال، بل كان مستقلاً برأيه غاية الاستقلال، ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر، وهي آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي عند ذي الرأي الصريح، فكثيراً ما يراجع النبي ﷺ إلا أن تستعصي المراجعة ويعظم الخطر فتلتزم - بالاستقلال والحب والحزم الذي يضطلع بجلائل المهمات.

وكان الفارق بين النبي ﷺ وعمر ؓ هو الفارق بين الإنسان العظيم والرجل العظيم، وقد تتلمذ عمر على محمد في إنسانيته، واستفاد منها.. ونمى محمد رجولة عمر وتعهدا وادخرها لتنتفع بها الأمة الإسلامية بعده.

وإذا كان الرسول ﷺ قدم أبا بكر على عمر فلمعرفته بكلا الرجلين، ومن هذه المعرفة أن اختيار أبي بكر يجمع للإسلام فضائل الرجلين، ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين. وقد كان عمر وفياً وفاءً محضاً لذكرى النبي عليه السلام في آله، وخاصة بيته.. هذا مع اعتبار أمر هام: هو أن الأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة.

وعندما احتدم الخلاف حول من يخلف الرسول ﷺ بايع عمر فقطعت جهيزة كل خطيب، وذلك قدر عمر عند الصحابة وقدره عند أبي بكر وقدره عند الله... وكان الرجلان بعد ذلك - على اختلافهما، في المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين

المختلفين حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأى جميع لا خلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة، ويتجهان إلى غرض واحد، وظل عمر قوة لأبي بكر بموافقته ومعارضته على السواء وأصاب فيما قاله له يوم بايعه: "إن قوتي لك مع فضلك" فكسب الإسلام خليفتين معاً بتقديم أبي بكر للخلافة، لأنهما لم يبغيَا بالخلافة مآرباً غير خدمة الإسلام.

وبعد خلافته رعى قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره إلا أنه كان مفضلاً في هذا كما كان مفضلاً في جميع محامده وحسناته، على أن هذا يتبع قاعدة عامة عنده، وهي أنهم لا يستحقون هذا إلا بالحق والقسطاس الذي لا يجوز، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء؛ فلكل رجل حقه.. ولكل عمل حقه.. وكذلك كانت العلاقة بين جميع عامة المسلمين.. وعلى هذا الوجه وحده ينبغي أن نلتمس التأويل في محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل.

وإذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول: إنه كان رجلاً وافر الحظ من ثقافة زمانه: كان أديباً مؤرخاً فقيهاً مشاركاً في سائر الفنون، مدرباً على الرياضة البدنية خطيباً مطبوعاً على الكلام، فليس أرجح من نصيبه في ثقافة زمانه نصيب. كان طول حياته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، ونظر إلى فائدته العملية في الحياة كما نظر إلى متعته الأدبية، ومن ناحية الأدب فيه والدين معاً حثه على تعلم العربية. ولم ينكر من الشعر إلا ما ينكره المسؤول عن دين.

ومن المشهور عنه أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها.. وفقهه بالشرعية التي كان مسؤولاً عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه.. ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم، وما الذي يجمل بالعلماء في طلبه. على أن زبدة الثقافة كلها تتلخص في الدراية بالناس ونفاذ البصيرة في شؤون الدنيا، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، وهو مجال كان عمر قليل النظراء فيه.

وقد شارك في سائر الفنون والمعارف التي كانت ميسورة على عهده إلى درجة تدعو إلى العجب كما تدل على ذلك أخباره، وكان ذا ذوق عال في الجمال وسرور بكل حسن جميل، كما كان مطبوعاً على التعبير، وله عبقرية فيه، تعبير خاص به لا يشبهه تعبير سواه.

وكان الجانب العملي من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية، كما هو المهود في سياسة الأمم وعواهل الدول. ولم يكن عمر عدواً للمعرفة ولا معرضاً عنها، بل كان مشغولاً بها حيث رآها، دينية كانت أو دنيوية، ومن قومه أتت أو من غيرهم.

وكان الخليفة الأكبر صاحب الأمر في الجزيرة العربية وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدبر الحكم في الرقعة الوسطى بين قارات العالم المعمور - كان رجلاً

فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف ويزهد فيه كثير من النساء، ويخطب بعض النساء فيأبين عيشه، وليس هذا من انعدام الرحمة في قلب عمر، بل لضبط النفس الذي يجعله درعاً فوق هذه الرحمة حذراً من الجور أو الميل في حق نفسه وحق الله في رعيته.

وإذا بحثت عن جانب من جوانب الرحم الذي ينبغي أن يوصل فقد وصله هذا الرجل؛ من بر بالأبوين.. إلى بر بالأبناء.. إلى إخلاص كبير للأصدقاء والعشراء.

وإذا عرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه، وفيما تعطيه، فلا هي بظالمة ولا مظلومة في كل أمر يرجع إليه: فما للمرأة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه.. على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأي الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه، وقد أكبرت سيدة نساء العصر عائشة عمر فوصفته بأنه نسيج وحده.. وقد كان ذوق الجمال متوفراً فيما يستحسنه من المرأة، ويستلمح ما يستلمحه كل عربي، ويستحسن الحسن عنده والملاحة في نظره.

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، وكانوا جميعاً عنده بمكان الحب والمودة، لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم فحاسبهم أكثر من محاسبة رعيته.

وهكذا صحبنا عمر في حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال؛ صحبناه في جاهليته وإسلامه، وفي سره وعلايته، وفي

بيته، وحكومته، وفي دينه وثقافته.. وفي اتصاله بالله واتصاله بالناس، فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة، وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهي إحقاق الحق وإدحاض الباطل، ووسمته بسمة الجندية المجاهدة التي تحمي الحدود للناس، وتحميها من الناس، وهو في طبيعة من يحمي وفي طبيعة من يهتمى على السواء. ولهذه الخصلة ذكره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً، فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء شخصية أو خلة ترتبط بحياته الفردية.. وإنما البغضاء الوطنية هي علة التآمر على قتله.

وقد تمثلت في مقتله مزاياه الكبار التي تمثلت في جلائل أعماله، وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة في الشجاعة وتقديم الواجب، والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير، وسداد التدبير، كما كان عمر في أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير.

عبقرية خالد

نشأ خالد في بني مخزوم، وقد كانوا أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء.. وكانوا في الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح.. معترزين بالعتاد والتلبد والعدة والعديد، وكانت نشأته في أعرق بيوتها، وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته ألا رئيس ابن رئيس لا تعلق مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية.

ويبدو أن بني مخزوم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها، لكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لمنافسة ثلاثة بطون قوية تلتقي في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم هذه البطون الثلاثة هي: بنو هاشم وبنو أمية وبنو عبد الدار.. فلا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والخنزوانة بينهم وبين بني عبد مناف حين تظهر النبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم، وكانت هذه الخنزوانة وتلك الأنفة عقبة كبرى في طريق الإسلام.. ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية في وجه من وجوها مصاولة بين محمد عليه

السلام وخالد بن الوليد الذي انتهى إليه شرف الرئاسة المخزومية في ذلك الحين.. وقد دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية في عهد الجاهلية فصنع للإسلام، وصنع الإسلام له الأعاجيب وكان مقياس العبقرية العربية في عهدين متقابلين.

وقد ظهرت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر؛ إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل، ولم يكن أكبر أبناءه، ورأيناه على قيادة فرسان قريش في وقعة أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره.. وولاية خالد لهذه الوظيفة التي كانت موكولة إلى قبيلة بني مخزوم من بين بطون قريش جميعاً هي آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه.

كان خالد طويلاً بآن الطول عظيم الجسم والهامة مهيب الطلعة يميل إلى بياض.

وقد تعلم في صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة كما تعود عيشة الشظف، وراض نفسه على الخشونة عمداً في البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع حيثما تفرد من موارد الزاد.. وكانت له ضلاعة العصبين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف، وهي ضلاعة توشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمد من العضلات والأوصال.

وكان إسلام خالد ضرباً من التسليم.. تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر، والنصر والهزيمة.. الخبير بموضع

الإقدام وموضع الإحجام، ولم يكن تسليمه في معركة حسية وكفى، بل وفي معركة نفسية أيضاً، ولهذا عناه أن يستغفر له النبي ربه عن ماضيه حتى ينفذ عنه الكفر ويستريح مما لصق به منه.

دخل خالد في الإسلام فأكبره النبي ﷺ للصفة التي سيوصف بها في تاريخ الإسلام.. أكبره لأنه "سيف من سيوف الله"، وقد كان بصراً علوياً من محمد ﷺ حين يلمح هذه القدرة في معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالداً مرتداً من غزوة مؤتة، أو مأخوذاً مع الخيل وهي تولى في أول معركة من ميدان حنين، أو صانعاً في سرية بنى خديمة ما يبرأ منه النبي ﷺ وهذه الأعمال ولا ريب من المعدن الذي نجمت منه حروب الردة وفتوح الشام والعراق، ولا يدركه قبل هذه الأعمال إلا محمد العظيم.

وفي حروبه جميعها لم يهزم ولم يخطئ ولم يفشل قط في واحدة منها؛ لا عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة، وكان يسير بجيشه أبداً على تعبئة كاملة ليقاوم عدوه حيث كان مفاجئاً أو غير مفاجئ، وكان أبداً كما وصفه عمرو بن العاص: "في أناة القطاة ووثبة الأسد"؛ فلا يهمل الحيطة، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة، ولا يعز عليه أن يتحامي لقاء عدوه في بعض الساحات لينتقل به إلى المكان الذي هو أصلح لحركاته وأعون له عليه، ومن علمه بفتون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفاً وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء، فإذا أرسل

أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يغنون فيه فذاك أجدى من تسيير الجيش كله، أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية، فإن طراً في خلال سيره ما ليس في الحسبان فمعه في هذه الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق، وهو ينقض على فريسته، فلا تشعر الفرقة التي أشخصها إلى مكانها بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها.. فهي شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة، ومعرفة بما هو لازم في وقت لزومه، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط في ساحات فارس، ولا في ساحات الشام مع اختلاف الميادين، واختلاف الأحوال، واختلاف الأعداء.. وهذه كلها صفات القائد الكبير المفطور على النضال.

وكان يضع الخطة في موضعها ساعة الحاجة إليها.. وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى في الحرب من الحصار والاحتلال.. كما علم أن الخبر قوة وسلاح، فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبراً من أخباره يفيد أو يحميه من بأسه.. وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغل عن القوة الأدبية والدعوة يعززها ما استطاع في جيشه ويضعفها ما استطاع في جيش عدوه.

ولقد كان يخلق فنون الحرب التي يجمعها الخبراء في عصورنا هذه بمراجعة الحروب، وتحصيل الدروس، واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات، ومن ثم كان نمطاً فريداً بين قادة التاريخ؛ لأنه يمزج الفن بالبديهة، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة، وكان يقتبس ويجدد بالرأي والفتنة كما يقتبس

ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة "القبة والأعنة" يصح أن تسمى غريزة الميدان.

وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المطاليم الخالدين من زراع البلاد التي فتحها.

فمكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو بالمناقب الشخصية، وفيه من ملامح القيادة في العظام والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة المهمة فيه، وأنه كان كما يقال: قائد من فرع رأسه إلى قدميه.

ومفتاح شخصيته هو السليقة الجندية: .. وإذا كان هذا هو مفتاح شخصية عمر رضي الله عنه فهناك الفارق بينهما: فعمر كان جندياً في أخلاقه فارقاً بين شخصيتين فهو فارق بين قبيلتيهما: بني عدي وبني مخزوم، وهو يفسر لماذا اختلف لونا الجندية في شخصية الرجلين العظيمين: عمر إلى الجندية الموزوعة، وخالد إلى الجندية المدفوعة، وعمر إلى الشظف المختار، وخالد إلى المتاع المباح.

لكن هذه الجندية المدفوعة لم تكن ولوعة بالحرب لولوعها بالشر والسوء ولا ولعاً بالضعيفة والبغضاء.. فكانت عداواته كلها عداوات جندي مقاتل، ولم تكن عداوات مضطغن آثم، ولم يعرف قط أنه حمل الضعيفة لأحد من الناس حتى عمر الذي عزله، وشطر ماله، وأبقاه في العزل سنوات.

كما أن متعته لم تكن إلا متعة المسافر الذي يستريح إلى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد... وليست متعة المتهاافت الذي يتوق إلى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين إليها ، ولا يفيق من سكرتها..

وكادت طبيعة الجندي أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية ، فإذا قال كلمة ، أو كتب سطرًا فإنما يكتب بحسام لا بيراع.. رحم الله خالدًا : إنه كان جندياً وكفى ولكنه قد عوض في جانبه الواحد عن جوانب عدة في الآخرين لأنه قد رزق الجندي في طرازها الأول ، ورزق منها وحده ما يكفي عشرة من جنود التاريخ المبرزين.

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص - زهاء سنوات أربع لم يفارقها قليلاً إلا ليعود إليها.. ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : "...ولو أدركت خالدًا ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت عبدك وخليتك يقول لخالد: سيف من سيوف الله سله الله على المشركين".

ولقد استحق هذه التزكية بعد عزل عمر إياه - حتى لا يفتتن الناس به - لأن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر وإباء فلم يغلبه لسانه ، ولم يغلبه هواه ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة أو وقية.. ولو شاء بعض ذلك لكان له مطعم فيه.. وهو الرجل التي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين.

لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، وقد أدى دوره كاملاً ولم يبق أمامه مزيد عليه، ولم يبق له إلا أن يعرفوه في ميدان العزلة، وهو الشجاع الصبور.. وقد عرفوه في ميدان حمص - ميدان السلم والتسليم - خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم.

وانتهت حياة خالد ﷺ نهايتها العجيبة حيث مات على فراشه بعد أن شهد نيفاً وخمسسين زحفاً في نجد والحجاز والعراق والشام، ولم يبق في جسمه موضع صحيح من كثرة الجراح. ومات نصير الحياة مطمئناً إلى نهاية حياته لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه.

عبقرية الإمام

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة ، وهي في جملتها الأيد والنبل والمروءة والذكاء ، عدا المأثور من سماتها الجسدية التي تلاقحت أو تقاربت في عدة من أعلامها .

وقد كان طفلاً مبكراً للنماء سابقاً لأنداده في الفهم والقدرة ، ونشأ ﷺ رجلاً مكين البنين في الشباب والكهولة حافظاً لتكوينه المكين حتى ناهز الستين ، وتدلل أخباره كما تدل صفاته على قوة جسدية بالغة المكانة والصلابة على العوارض والآفات.. وكانت شجاعته من الشجاعات النادرة حيث ازدانت بالتورع عن البغي ، والمروءة مع الخصم قوياً أو ضعيفاً على السواء ، وسلامة الصدر من الضغن على العدو وبعد الفراغ من القتال.. وتقترن بشجاعته صفة تلازمها وهي الثقة أو الاعتزاز أو الإدراع بالهبة. والتهويل على الخصوم ، ولا سيما في مواقف النزال ، ومدار هذا الخلق في ابن أبي طالب ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا

ودرج، وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التي هي جزء منها وأداة من أدواتها، وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تتخذل وأنفة لا تلين.

وكان ملاك الأمر في أخلاقه ﷺ أنه لا يتكلف إظهار شيء، ولا يتكلف إخفاء شيء، ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه.. وكانت خليقة عدم التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة في قوتها ورسوخها، أو هي قرينة للشجاعة في نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها، ونعني بها خليقة الصدق الصراح الذي يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء، وصدق في تقواه وإيمانه كما صدق في عمل يمينه، ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهده منه في لذة دنيا أو سيب دولة، ومع هذا الزهد الشديد كان ﷺ أبعد الناس من كزازة طبع، وضيق حظيرة، وجفاء عشرة بل كانت فيه سماحة ينبسط فيها حتى يقال: دعابة.

والحق الذي لا مرأ فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف. وهذه، كلها صفات تتنظم في نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوي، وصادق لأنه شجاع وزاهد مستقيم لأنه صادق.

ومفتاح هذه الشخصية الذي يفيض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير هو "آداب الفروسية" وهي تلك الآداب التي

نلخصها في كلمة واحدة هي النخوة.. وقد كانت النخوة طبعاً في علي فطر عليه، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات الفروسية العملية التي يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران.

وهكذا كان علي كرم الله وجهه في جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال.. وكان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها.. وربما شذ من سنته هذه في بعض الأحيان فإذا هو لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حيث تغلبهم بوادر اللسان.

وكاد كرم الله وجهه أن يولد مسلماً: .. وكان دينه له ولعدوه بل له ولعدو دينه؛ فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه الحق لكل من استحقه وإن بهته وأذاه، والمزية التي امتاز بها علي بين فقهاء الإسلام في عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، كما تتلمذ على القرآن الكريم واستوحاه في عرفان إيمانه، فكانت نظرتة إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر فيها ما شاء ابتكار التلميذ في الحكاية عن الأستاذ.

وكان كرم الله وجهه قدوة في الاجتهاد والنظر، وعنواناً للنوازع التي تفرقت بين أهل زمانه، وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه.

وكان عصره كرم الله وجهه منقسماً بين ثبوتيه واضطرابه
قسمين اثنين متقابلين: في أحدهما عوامل الرضا عن النظام
الاجتماعي والتحفز لتقويضه وتحويله: أحدهما وهو قسم التذمر من
النظام كان قسم علي بن أبي طالب في الجزيرة العربية بجملة
أجزائها، والآخر وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعي كان قسم
معاوية بن أبي سفيان في الشام وما جاورها.

والحوادث هي التي اختارت لكل من الحصتين زعيمها،
وأشبهه الناس بها، وأقربهم إلى ولاية أمرها و"كما تكونوا يول
عليكم" فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقة من معاوية،
ولم يكن أحد أشبه بقيادة الشكوى التي تطمح بأصحابها إلى
التغيير من علي.

وقد بويع لعلي بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية
في تاريخ الإسلام، وهي مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه... والحقيقة التي
لا يطول فيها الريب أن علياً رضي الله عنه لم يكن أقدر علي اجتباب هذا
المصير من معاوية أو من عثمان نفسه لو شاء أن يستمع إلى بعض
الناصحين إليه: كان علي موضع الاتهام من عثمان وبطانته،
وكان مسؤولاً عن الثوار الذين يلتقون حوله، وكان يعمل جهده
لإبعادهم.. لكنه كان يعالج داءً استعصى دواؤه، وابتلى به
أطباؤه، فالكل يريد تغييراً يتأتى من قبل الغيب، أو يأتي من قبل
الآخرين ولا يغير شيئاً من عمله أو مستطاعه.

وأصبح الأمر بعد مقتل عثمان ؓ واضحاً: صراعاً بين الخلافة الدينية، والدولة الدنيوية.. وتمثلت الأولى في علي ؓ والثانية في معاوية ؓ.

واتبع علي من اليوم الأول في خلافته أحسن السياسات التي كان له أن يتبعها.. فمن اللحظة الأولى أخذ في تجنيد قوى الخلافة الدينية التي لا قوة له بغيرها.

وهذه السياسة أغضبت منافسيه، وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه.. لكن السياسة المقابلة - لو اتبعها - تغضب أتباعه وأنصاره، ولا تضمن له رضى المنافسين ودوامهم على الرضى والوفاق بينهم في تأييده.

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت الصفوف في الدولة الإسلامية له أو عليه فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا في عهد عثمان، وجميع الطامعين في الانتفاع بالولاية والأموال العامة، وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه... وحشدوا جموعهم لمقابلته.. وتقابلوا معه في موقعتي الجمل وصفين..

وبدأت العثرات من ثم في كل خطوة يخطوها للسلام أو القتال، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يجرمها، ولا يقول بوجوبها.. وكان ذروتها عندما رفعت المصاحف على

الحراب. كما كان في جيشه فوق هذا أناس يخونون عهده، ويشغبون عليه.

وأدهى من ذلك أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتكيل بهم؛ لأن الجيش الذي فيه من يحرم حرب العدو من الجيش الآخر يكون فيه إناس يحرمون النصير ممن فيه من باب أولى، وظل أصحابه يشغبون عليه في كل أمر حتى انتهت مهزلة التحكيم، وخرج الخوارج عليه، وضربه أحدهم في جبينه بسيف مسموم، فمات بعد أيام وهو يحذر أوليائه دون المثلة بالقاتل.

وتصور لنا هذه الخاتمة الفاجعة - كما تصوره لنا تلك الحياة قبلها - ذلك النسيج النابض الذي يتخلل حياة علي عليه السلام في لحمتها وسداها.. وفي تفصيل أجزائها، معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها.. تلتقي فيه عوامل النخوة والشجاعة، والوفاء والإيمان والسماحة.

ومن الأحكام المرتجلة في التاريخ، وليس لها سند من واقع - ما قيل عن علي كرم الله وجهه من أنه كان شجاعاً، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة، ومن هذا الباب تخطت لهم له عزل معاوية، ومعاملة طلحة والزبير على النحو الذي عاملهم به، وعزل قيس بن سعد من ولاية مصر، وتسليم قتلة عثمان، وقبول التحكيم، وقبول الخلافة.

والحق أن علياً على قسط من الرأي الصائب كاف لمهمة الحكم لو تصدى به للخلافة والعصر عصر خلافة، وليس بعصر

دولة دنيوية مضطربة في دور تأسيسها، وتلفيق أجزائها.. فالعلة الكبرى علة عصره، والعوامل التي أدت إلى النحو الذي صار عليه أيام علي، الذي عنده قسط من الرأي الصائب. لكنه لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيّدون بالرأي وبالعمل على السواء.. ولم يخسر كثيراً بما فاتته من الدهاء، ولم يكن ليريح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لا بد من ملك أو خلافة، ولن يكون ملك بأدوات خليفة، ولا خليفة بأدوات ملك، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعي الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلافة ونياته ومعاونة أمثاله.

هل كان من الممكن أن يختصر الطريق، ويبطش بالذين تتعسر معهم الحيلة من جيشه؟.. لم يكن الإمام من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدبرين، فكانت له ضربة الشجاع، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر.

ولم يكن مسؤولاً عن تأخير الخلافة عنه نيفاً وعشرين عاماً لأن هناك عللاً تخرج عن إرادته، ومن هذه العلة نظرة العصبية التي نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية... والصفة العالمية التي جعلت تأسيس الإسلام على أسرة واحدة في العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والإحجام منذ اللحظة الأولى.. وسلاح المنافع الدنيوية لم يكن موجوداً طوالت عهود من سبقوه حتى يستعمله لنيل الخلافة.

فسياسته كرم الله وجهه لم تورطه في غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى، ففي سياسته فهم وعلم.. ولم يكن فيها الحيلة العملية التي هي إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء.. فكان نعم الخليفة لو صادف أوان الخلافة.

وجماع سياسته الداخلية أنها سياسة الرجل الذي شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية في نضالها الأخير مع الدولة الدينية: طريق الخلافة المنزهة حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض، أو هي أقرب الطريقتين إلى المساواة، وأدناها إلى رعاية الضعفاء، فالناس في الحقوق سواء.

وقد انقسمت كل الأمور في ذلك العصر إلى الخلافة وطريق الدولة الدنيوية، وأكبر ما يذكر في هذا العهد قيام الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية، فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية، والخلافة الدينية، تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب، وبطلان الفوارق بين الأجناس.

وكان الامتزاج واضحاً بين الفكرة العالمية، وبين إمامة علي أو خلافته، ولنا أن نعم هذا الحكم الإنساني في كل شأن من شؤون الحكومة قضى به علي في عهده أو عهد الخلفاء قبله، ولم يحد عن هذه السنة إلا في أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصره، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس، وهو إحراق الروافض الذين عبدوه، فالإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ولا على النظام.

وكان الإمام يذكر أبدأً أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد.. ونقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس، ولأنها كانت بمثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام، كما كانت العاصمة الثقافية التي ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات.

وقد كان - كرم الله وجهه - من أحب الناس إلى النبي ﷺ، كما كان يحبه إلى الناس ليمهد له سبيل الخلافة في وقت من الأوقات، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحباً لا أن يكون اختياره حقاً من حقوق العصبية الهاشمية.

أما العلاقة بينه وبين الصحابة فهي علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذي يثوب إلى الرشد والصبر والتجمل والتقوية.

واختص علي كرم الله وجهه بلقب الإمام فإذا أطلق لا ينصرف إلى أحد غيره، وقد كان إماماً في الحكم كما كان إماماً في كل مذهب من مذاهب الفرق، فهو قطبها الذي تدور عليه، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء التوحيد. وبينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة فهو أستاذ هؤلاء جميعاً بالسند الموصول.

أما فن الإمام العسكري فهو فن البطل المغوار الذي يناضل الأفراد وينفع الجيش الذي هو فيه بقدوة الشجاعة، وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه ليعرف كيف يكون الهجوم وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه، ويفت في عضده..

وثقافته هي ثقافة الفارس المجاهد في سبيل الله يداول بين القلم والسيف، كما يتشابه في الجهاد بأسه وتقواه؛ لأنه بالبأس زاهد في الدنيا مقبل على الله، وبالتقوى زاهد في الدنيا مقبل على الله.

ولالإمام رأي خاص في المرأة وهو أنها "شر كلها" وشر ما فيها أنه لا بد منها، ولها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد.. ومع أنه وصل إلى هذا الرأي عن طريق الحكمة وبحس العابد لم يحجبه ذلك عن فطرته الغالبة عليه وهي فطرة الفارس على آداب الفروسية ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها.

أما حياته البيئية فقد خلت من شكاة لم يألفها الأزواج في زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله.

وفهم من خلائقه وسيرته أنه كان أباً سمحاً يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأي في أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام، كما كان يزهيه أن يحيطوا به في محافل الروع، ومشاهد الزحوف، واشتهر بالعطف على صغارهم كما اشتهر بمودة كبارهم.

وكانت معيشته بين زوجاته وبين أبنائه معيشة الزهد والكفاف.

عبقرية الصديق

الصديق من أسرة فيها طيبة ومودة.. وقد ورث ذلك عنها ، وعن أبيه خاصة.

وكان ﷺ الخليفة الأول حيث اجتمعت شرائط السن.. والسبق إلى الإسلام.. وصحبة النبي ﷺ في الغار.. ووجود المودة المرعية بينه وبين أجلاء الصحابة.. فكان اختياره خيرة الواقع الذي لا يحتاج إلى تدبير بل يقاوم كل تدبير.

ويتصف بصفات العظماء: فهو أليف ودود حسن المعاشرة.. مطبوع على أفضل الصفات التي تتألف له الناس فيألفونه ، ومع هذه المودة كانت فيه حدة يغال بها ، ولا يستعصي عليه أن يكبح جماحها ، وهي حدة تتم على سرعة التأثير فيه.. كما كان وقورا جميل السميت يغار على مروءته ، ويتجنب ما يريب.. وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام.. وكانت شجاعته كفاء صدقه ووفائه.. ويمتاز بقسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، وله حظ وافر من الملكة الروحية إلى جانب

ما عنده من الملكة الذهنية، ونعنى بالملكة الروحية ما نسميه "بيقظة الضمير"؛ يرعى حق غيره، ويحسن ولا يسيء، وهي خصلة كانت ملحوظة أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر.. فلما جاءه الدين بلغ به درجة قصوى في هذا الشأن.

ومن هذه الملامح والسمات التي وصف بها يتبين - بأسلوب العصر - أنه كان من أصحاب المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا، وإذا أضفنا إلى ذلك المزاج أنه كان دقيق البنية خفيف اللحم صغير التركيب تبين لنا أنه - ككل الذين عندهم هذا - مطبوع على الشعور بالعظمة والإعجاب بالبطولة، وهذا هو "مفتاح شخصيته" الذي يفتح كل مغاليقها، وينفذ إلى أسرارها، أعجب ببطولة ليس أشرف منها بطولة: بطولة محمد ﷺ.. وظهر منه ذلك في إيمان القلب، وروية الفكر، وفي سياسته العامة والخاصة، وما تشتمل عليه من أدب سلوك.. وعلاقة بالناس.

ومن أصالة الإعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقدوة في أصول المصاحبة.. وكان بفطرته خبيراً بالمراسم التي نسميها اليوم "بالبروتوكول" لأن أدبه في توقير العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل.. وهذا الإعجاب هو الذي جعل أبا بكر أول المقتدين بغير سابق وبغير نظير. وبهذا كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الإسلام غير مدافع.. لكنّها القدوة التي

نشأت عن قوة في نفس صاحبها جعلته يقف بصلاية أمام الأحداث لا يتزحزح ولا يلين كما ترى ذلك في حروب الردة.

وانتقال أبي بكر بسهولة إلى الدين الإسلامي، ليكون أول المسلمين، يدل على صفات نفسية عظيمة فيه جعلته يقبل على الإسلام، وانتفاء صفات عنه جعلت غيره من أهل الجاهلية يحجمون عن الإسلام: فقد كان الرجل صادق الطبع.. مستقيم الضمير، لا يلتوي به عما يعلم أنه الحق عوج وسوء دخلة.. ومن كان على هذا الصدق في الخليقة فلا حجاز بينه وبين دعوة الإصلاح.. وليس من شأنه أن يصم أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم، كما كان مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصالح.. وكان قريباً من السليقة الدينية التي تتراءى في مكاشفة الغيب. ومع كل هذا كان بليغاً متذوقاً للبلاغة، فلا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سبباً قريباً بين صاحبه وبلاغة القرآن، وبلاغة النبي ﷺ. على أن سبب الأسباب جميعاً في التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو "الإعجاب بالبطولة" ذلك الإعجاب الذي هو ملاك أخلاقه و"مفتاح شخصيته".

وإذا كانت هناك موانع تمنع الرجل من أن يجيب دعوة المصلحين من غطرسة، أو سيادة مهددة، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير، أو مغامسة للشهوات تحبب إليه أن يستقيم إلى العرف الذي يبيحها، ويعزف عن الهداية التي تحظرها، أو تعصب غضوب للعقيدة التي

درج عليها.. أو شعوره بقوة سلطان تلك العقيدة في أبناء قومه.. أو جبن ينهأ أن يخرج على المألوف، ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد، أو إيفال في الشيخوخة يصد الإنسان عن كل تغيير، ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد.. أو حادثة سن تجعله تابعاً لغيره في الرأي، وتجعل له شرة تحجبه عن التروية والمراجعة، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أدله ويسط سلطانه عليه - إذا كانت كل هذه موانع تمنع الرجل من أن يجيب دعوة المصلحين - فقد برئ منها كلها أبو بكر، ولم يحجبه حاجب عن الإجابة السريعة للدعوة المحمدية.

وعلى هذا كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده؛ كان إسلامه الرجل الكريم السمح الودود - يستمسك بالصدق والتصديق، ويخلص في الإعجاب بالبطل، الذي هدا، إخالصاً لا شية فيه، فهو يلين في كل حالة، ويشد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء: مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق، وقوة الإعجاب. وإن الدين الذي يرتضيه رجل كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لهو الدين الجدير بالاستماع والنظر إليه فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الإسلام وكانوا فتوة للإسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعده فتبانه الأبرار.. واشترى نفراً من العبيد المرهقين، فكسبت الدعوة بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي ﷺ عن طريقه.

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى
الخلافة مؤسساً لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه
بعد بانيه ﷺ.

وبعد الخلافة أيضاً.. أخذنا بسنة الاقتداء أو أخذنا بالقيوم من
الآراء عندما لم تكن هناك سابقة يقتدى بالرسول ﷺ على نهجها ،
أنفذ جيش أسامة.. حارب المرتدين.. سير البعوث إلى العراق والشام..
وجمع القرآن الكريم في المصاحف فصان دستور الأمة وحماه.
فسياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده كانت سياسة المقتدي
المقتدر الفعال الذي يصغي إلى النصح ممن يرون التصرف والتمييز
والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على ضعف وتواكل وإلقاء بالتبعية
على غيره بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعية
من أعمال المتصرفين.

وإذا كانت حكومة الصديق قد توخت مبادئ نص عليها
القرآن الكريم ، والسنة ، واتفاق المسلمين فإن الديمقراطية الحديثة
لا تروم غاية أقوى من الغاية التي ترومها الحكومة الإسلامية ، ولا
تبعد من المبادئ غير المبادئ التي أبعدها الحكومة الإسلامية. أما
الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية
فخلائق أبي بكر التي عرفناها دليل عليها : عفة ، وصدق ، ودعة ،
وحزم ، وأناة ، وكيس.. وكل ما يعهد من هذه الخلائق فهو معهود
من الخليفة الأول في جميع ما حكم به وتولاه ، ولم تؤخذ عليه إلا
بادرة واحدة: هي إحراقه باغ من البغاة في ساعة من ساعات الحدة

التي كان يغالبها جهده حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص القاتل السفاح.. ويثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبي بكر، ويحذفه من شاء منها، فلا تزال على الحالين قدوة لأصح الحكومات العصرية في مزيتين جامعتين: إبطال المبادئ الضارة التي تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها، وتقرير الغاية التي لا تفضلها غاية لحكومة إنسانية: حكومة الفرد، ومصصلحة المحكومين.

وهناك جانب كبير من حب النبي ﷺ يرجع إلى أنه يستحق هذا الحب؛ لفضيلته وكفايته واقتداره على معاونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين. أما حبه للرسول ﷺ فهو حب الإيمان والإعجاب والولاء؛ حب يهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه، وقد أقام على ذلك العهد بعد موته.. وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي ﷺ على طبعه الذي فطر عليه: وهو الرفق والمروءة والحياء.. فسمعوا نصحه ورد بعضهم إلى جادة الصواب.

وإذا كان الكلام يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله، ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه فتقدير الصديق لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله، ومن أصدق العلامات على ثقافته؛ كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه، وكان أعلم الناس بموضوع كلام الرجل من مروءته وشرفه وكان بصيراً تمام البصر بالكلام: قصد في العبارة، ووزن للكلام، وذوق في الخطاب ولا

تتعرف النفس المثقفة إلى الناس بأية هي أقرب من هذه الآية، وأحق منها بالتصديق.

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفضل ثقافات زمانه في الجزيرة العربية؛ طبع سليم، وملاحظة صادقة، وخبرة بالدنيا عن طريق المعاملة والسياحة وإصغاء إلى الحسن من القول والوثيق من الأخبار، وعلم بالأنساب والتواريخ، واستيعاب القرآن كله، وفقه الدين كله، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع ممن نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه. فثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى للتاريخ في ذلك الزمان.

وكان الصديق في بيته رجل أسرة، وأواصر البيئية عنده تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بغبطة القرابة ومودة الرحم، ونعمة الألفة والمصاحبة، فلم يكن والداً باراً لأن البر بالأباء واجب وكفى.. ولا أباً رحيماً لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى.. ولا زوجاً وفياً لأن الوفاء بالأهل واجب وكفى، بل تجلى فيه خلق الإنسان الاجتماعي بطبعه على إخلاصه وأوفاه، بر بالأباء والأبناء طول حياته، وما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

والصورة العامة التي تصورها الوقائع، ويحكم بها التاريخ على أبي بكر هي صورة أمين وأكثر من أمين، لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو الإسلام.. وأعطى الأمانة وزاد عليها.. وأعطى

حق غيره وأعطى من حقه الذي لا يطلب منه: كان أميناً في الصداقة.. وأميناً في الحكومة وأميناً في السيرة وأميناً في المال، وأميناً في الإيمان ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين.
وكبر رضي الله عنه وكل فضيلة فيه تكبر إلى آملها.. فلما مات كان أكبر ما كان.. وأكبر ما تأتي أن يكون.. وعندما بلغت حياته نهايتها في حيز الجسد بلغت أيضاً نهايتها في حيز المجد والتاريخ.

...

هذه هي صورة العظماء في العبقريات؛ تناول العقاد في كل منها جوانب العظمة في العبقري، ومختلف مجالات الحياة التي أسهم فيها: في السلم والحرب.. في الإدارة والسياسة.. في البيت وبين الناس: الأصدقاء والأعداء.. بين التابعين والمتبوعين. ويلاحظ على هذه الصورة ما يأتي:

1 - إن العقاد في رسم الصورة يتناول الشخصية بعد أن اكتملت خطوط نضجها، ولم ينظر إليها من الناحية التطورية النامية أو "الديناميكية" فهو يكتب عن أبي بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم، بعد أن اكتملوا وصاروا عظماء، ولم يبين مراحل حياتهم، وهو في هذا يفترض - كما يقول الأستاذ توفيق الحكيم - "أن قارئ العبقريات لديه إلمام بسيرة هؤلاء العظماء"⁽¹⁾

(1) توفيق الحكيم الأخبار 26 - 3 - 1966.

وهذا ما ينأى بعمله عن أن يكون ترجمة حياة كما يفعل غيره من كتاب السيرة مثل الأستاذ أمين الخولي في كتابه "مالك؛ تجارب حياة" حيث نرى أنه يتناول مالكاً مرحلة مرحلة من طفولته إلى نهاية حياته أو التجربة الأخيرة كما يقول المؤلف؛ فترى مالكاً جنيناً ثم طفلاً ثم غلاماً ثم طالباً ثم وهو يواجه الحياة، كل مرحلة من هذه لها فصل مستقل من الكتاب⁽¹⁾.

2 - لم يكن العقاد يتبع نمطاً واحداً في رسم صور العبقرية.. فالأنماط مختلفة: وليس العبقرية من يبرز في أكثر مجالات الحياة المتعددة فخالد بن الوليد برز في ناحية واحدة، وكانت كافية أن تضمه إلى عباقر التاريخ، تلك هي عبقرية العسكرية.

وهذه الصور ليست على خطر واحد من العظمة والكفاية؛ بل هناك التفاوت بينها، بحيث يكمل إحداها الأخرى.. فعمر يكمل أبا بكر ويسد ثغرات في شخصيته كما يتضح ذلك من قول عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: "إن قوتي لك مع فضلك"⁽²⁾.

3 - صورة العظماء لا تخرج عن الإنسانية في حدودها الطبيعية فليست هناك الأعمال الخارقة عن العادة، والتي تخرجهم عن بشريتهم.. فتحركهم دائماً في إطار من القدرة الإنسانية، ولم يشذ العقاد عن هذا شذوذاً قليلاً إلا في "رواية سارية الجبل" التي جعلت

(1) أمين الخولي: مالك، تجارب حياة، سلسلة أعلام العرب (11).

(2) عبقرية الصديق ص 25.

عمر يبصر الغيب، وجعلت جيشه يسمع صوته وهو في بلاد فارس بعيداً كل البعد عن المدينة.

4 - "سهولة الأداء عن كل عظمة في الشخصيات، واتساق أجزاء صورة كل عظيم من هؤلاء العظماء مستقلة عن غيرها"⁽¹⁾ ولا نلمح التناقض في رسم الصورة أو الاختلاط فيها ومن هنا سهل تلخيص العبقريات حتى مع الالتزام بأسلوب العقاد وعباراته كما أسلفنا، ومن الجناية على العبقريات أن يقال إنه لا يمكن تلخيصها واستخراج الصورة منها⁽²⁾.

5 - وربما تكون هناك مبالغة لو استنتجنا أن العقاد "يؤمن بأن الأبطال هم الذين يحركون التاريخ"⁽³⁾ بدليل أن عصر علي كرم الله وجهه هو الذي سيطر، ولم يقدر على تغيير الحوادث فيه أو تحريك دفته إلى جهة أخرى، ولو كان الأبطال هم الذين يصنعون التاريخ لاستطاع علي أن يجعل العصر عصر خلافة وثى عنانه، ولووجهه جهة أخرى غير التي يسير فيها، وهي اتجاهه إلى أن يكون عصر ملك.

6 - تبدو المبالغة في رسم الصورة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فالواضح من تاريخه أنه كان شديداً وقاسياً، وهذا ساعده

(1) خليفة التونسي، العقاد دراسة وتحية ص 167 مكتبة الأنجلو المصرية.

(2) د. طه حسين مع أنيس منصور. الأخبار 1966/3/26.

(3) أنيس منصور، عباس العقاد، هل نحرقة؟ الأخبار 1966/3/12.

على أن يعدل، وهي صفة تحتاج إلى الكثير من الحزم وعدم اللين، لكن العقاد رحمه الله جعل الأساس أنما هو الرحمة في نفس عمر.. وما ورد من الأخبار دالاً على أنه كان رحيماً يمكن أن يفسر بأساس غير هذا الأساس؛ هو إيمانه القوي المستقر الذي يكبح جماح هذه الشدة والقوة فلا يبالغ عمر فيهما المبالغة المذمومة. ويكون عمر حينئذٍ "من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته"⁽¹⁾ هذا الدين الذي ينشئ النفوس نشأة جديدة والذي "كان يداً خالقة حاذفة تأخذ الحجارة المبعثرة في التية فإذا هي صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهان"⁽²⁾.

وعلى هذا لم يكن غريباً أن يصفه أبو بكر رضي الله عنه بأنه كان جباراً في الجاهلية.. ولم يكن غريباً أيضاً أن يعزل خالد بن الوليد ذلك القائد الذي لم يهزم قط في حرب من الحروب التي خاضها.

ولكن كيف رسم العقاد هذه الصور؟.. هذا هو موضوع الصفحات التالية.

(1) د. نعمات أحمد فؤاد؛ عبقریات العقاد الإسلامية: مجلة الأزهر ص 281 الجزء الثالث السنة الثامنة والثلاثون جمادى الأولى سنة 1386 - أغسطس 1966.

(2) عبقرية عمر ص 126 - والمصدر السابق ص 281.

وسائل لتحقيق الصورة

- 1 - مدى تحقيق عظمة العبقري للصورة المثلى.
- 2 - تعقب دعاوى المستشرقين وبعض المؤرخين.
- 3 - الموازنة بين العبقري وغيره من العظماء.
- 4 - رسم الصورة بطريقتي الإيجاب والسلب.

مدى تحقيق عظمة العبقري للصورة المثلى

تعددت الوسائل التي رسم بها العقاد صور العظماء في الكتب التي تناولها بالدراسة.. وأوضح وسيلة لهذا هي مقارنة ما يتحلى به العبقري من جانب العظمة بما وعته الإنسانية من المثل الأعلى في هذا الجانب، ليتضح مقدار السبق والفضيلة والكمال للعبقري فيه.

وفي سبيل ذلك يبين المثل الأعلى للجانب أولاً، ثم يوضح حصيلة الشخصية منه، ومدى ارتفاعها إلى هذا المثل الأعلى.. وقد يعكس فيصور جانب عظمة الشخصية أولاً ثم يعرج على المثل الأعلى مبيناً مدى سموها إلى ذراه.

والطريقة الأولى واضحة في العبقريات، وخاصة عبقرية محمد التي كثرت فيها؛ فعندما يريد العقاد أن يبين أن محمداً ﷺ في أعلى درجات الفصاحة يذكر مقومات هذه الصفة والمثل الأعلى فيها "فالفصاحة صفة تجتمع للكلام وهيئة النطق.. ولموضوع الكلام.. فيكون الكلام فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة.. أو يكون

الكلام والنطق به فصيحين ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية في الأسماع والقلوب.. أما فصاحة محمد فقد تكاملت له في كلامه.. وفي هيئة نطقه بكلامه، وفي موضوع كلامه"⁽¹⁾

وعندما تناول جانب الإدارة عند محمد ﷺ، ومقدار نجاحه فيه سار على الطريق نفسه فقال: "وإنما نعني الملكة الإدارية من حيث هي أساس في التفكير: من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الإدارة كلها على أسس قوية ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق.. فليس في وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعية أن يؤسس إدارة نافعة، ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة.. أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهي السليقة التي تعرف النظام وتعرف التبعية، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.. وقد كانت هذه السليقة في محمد عليه السلام على أتم ما يكون."⁽²⁾

أما الطريقة الثانية: تصوير جانب العظمة في الشخصية أولاً ثم التعرّيج على المثل الأعلى، وبيان سموها إلى ذراه فتتجلى في "عبقرية خالد"، حيث أوضح دوره كاملاً في الحروب التي قادها، والوقائع التي وكل إليه أمر قيادتها، سواء أكان ذلك في غزوات

(1) عبقرية محمد ﷺ ص 28، 29.

(2) المصدر السابق ص 87، 88.

الرسول ﷺ ، كسرية مؤتة أو سرية بني جذيمة وغزوة حنين أم كان بعده عليه السلام كما في حروب الردة وفتوح فارس والشام..
ففي حروب الردة مثلاً بين العقاد أسبابها ، والعوامل التي أدت إلى قيامها.. وذلك حتى تتبين الدواعي النفسية والعقلية والاجتماعية للمسلمين - وخاصة خالد بن الوليد - حين خاضوا لجتها وأقبلوا عليها: "وغني عن القول أن خالد بن الوليد كان في وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية القرشية ، وداعي النشأة الحضرية ، وداعي القيادة العسكرية التي قدمته إلى طليعة المجاهدين في هذا الميدان"⁽¹⁾

ثم شرح ظروف المدينة وقت هجومهم ، ودور الخليفة الأكبر فيها ، وفي إنفاذ الجيوش لتأديبهم.. وسار مع الجيوش الإسلامية في اتجاهاتها.. عاطفاً مرات على - المرتدين شارحاً ظروفهم ، ومقدراً قوتهم ، ودور خالد القائد فيها ، وازناً أعماله مبيناً ما يستحق التمجيد منها ، وما هو خطأ يلام عليه كما في وقعة البطاح التي قتل فيها مالك بن نويرة ، وتزوج امرأته "وأوجب ما يوجب الحق عليها بعد ثبوت هذا كله أن نقول: إن وقعة البطاح ، التي قتل فيها مالك بن نويرة ، صفحة في تاريخ خالد كان خيراً له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال (الروايات) ، لأنها لم تضيف إلى فخاره العسكري كثيراً ولا قليلاً.. وأهدفته

⁽¹⁾ عبقرية خالد ص 101 إلى 149 والنص من ص 109.

لملام أحمد ما يحمد فيه منه أن له عذراً فيه يقبله أناس ولا يقبله آخرون.. يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق لا يعلو على ميزانه ميزان في ترجيح الرجال والأعمال"⁽¹⁾..

وما فعله هنا فعله أيضاً وفي فتوح العراق والشام.

وبعد أن فرغ من كل هذا، وصور دوره وجانب العظمة في سلوكه وأعماله بين مكانة هذه الأعمال بالنسبة للقواعد العامة التي انتهت إليها الإنسانية من تجاربها الطويلة في الحروب منتهياً إلى أن خالداً "يخلق فنون الحرب التي يجمعها الخبراء في عصورنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس، واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات"⁽²⁾ وأنه "كان نمطاً فريداً بين قواد التاريخ"⁽³⁾.

وبالرغم من أن العقاد قد هدف إلى تصوير جانب العظمة في الشخصيات فإنه لم يبرئها من كل عيوبها، وإن كان قد التمس لها جانب العذر: فأبو بكر رضي الله عنه حرق الفجاءة السلمي؛ لأنه استعمل السلاح الذي أخذه لمحاربة المرتدين في قطع الطريق، ومحاربة المسلمين.. "فهو خطأ ولا ريب.. ولكنه خطأ له عذره..

(1) المصدر السابق ص 133 - 134.

(2) المصدر السابق من ص 217 إلى 229 والنص من ص 221.

(3) المصدر السابق ص 227.

وخطأ في رأي أبي بكر نفسه قد ندم عليه بعد ثورة الغضب التي ذهبت بحلمه ورفقه"⁽¹⁾

وعلي كرم الله وجهه أحرق الروافض الذين عبده ووصفوه بصفات الألوهية، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة "فهؤلاء المفسدون قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التي لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة.. ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب وليس في اجتنابها خطر على الشريعة ولا على النظام"⁽²⁾.

ومن غلطات الإمام أيضاً عزله قيس بن سعد عن ولاية مصر"⁽³⁾.

وقد سلف أنه قرر جانب الحق في وقعة البطح، وزواج خالد من امرأة مالك بن نويرة، وكان أولى ألا تكتب وتسجل في تاريخه.. وأنها "لم تضاف إلى فخاره العسكري كثيراً أو قليلاً" وعرضته للوم"⁽⁴⁾.

(1) عبقرية الصديق ص 157 ، 158 .

(2) عبقرية الإمام ص 136 .

(3) عبقرية الإمام من ص 93 - 95 .

(4) عبقرية خالد ص 133 ، 134 .

تعقب دعاوى المستشرقين وبعض المؤرخين

ولأجل أن يجلو الصورة أمام المنصفين تعقب دعاوى المستشرقين، وبعض المؤرخين، ففندها بالدليل الواضح والحجة البينة، حتى يزيل تلك الأباطيل التي ألصقت بالشخصيات الإسلامية عن قصد أو غير قصد: ففي "عبقرية محمد" رد على زعم المستشرقين أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك في حرب الفجار بتجهيز السهام، لأنه عمل أقرب إلى خلقه من الخوض في معمة القتال..⁽¹⁾ وأنه يهدر الدماء في غير جريرة حيث حرض على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين.⁽²⁾..

(1) عبقرية محمد ص 64 ، 65.

(2) عبقرية محمد ص 67.

وقتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر⁽¹⁾.. وخروجه إلى ساحة الحرب لرؤية سرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها⁽²⁾، وقتل المقاتلين من بني قريظة بعد معركة الأحزاب⁽³⁾، كما رد على زعمهم أن محمداً ﷺ كان مستسلماً للهوى فأكثر من الزوجات⁽⁴⁾. وفي عبقرية عمر رد على الذين يزعمون أن عمر كان ضيق الأفق محدود⁽⁵⁾، وما قيل عن إحراقه مكتبة الإسكندرية وما يدل على ذلك من تعصبه لثقافة قومه، وبغضه للثقافات الإنسانية الأخرى⁽⁶⁾..

وفي "عبقرية الإمام" دحض ذلك الحكم المرتجل الذي أطلق على الإمام، وهو قولهم: إن علي بن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة⁽⁷⁾.

وفي "عبقرية الصديق" رد على تلك الفرية الكبرى التي تقول: إن هناك اتفاقاً سابقاً ومؤامرة دبرت بين أبي بكر وعمر وأبي

(1) عبقرية محمد ص 68 ، 69.

(2) عبقرية محمد ص 69 ، 70.

(3) المصدر السابق من ص 72 إلى 74.

(4) المصدر السابق ص 143 إلى 158.

(5) عبقرية عمر من ص 65 إلى 70.

(6) عبقرية عمر من ص 308 إلى 320.

(7) عبقرية الإمام من ص 85 إلى 104.

عبيدة ليأخذ الخلافة الأول فالثاني فالثالث، رضوان الله عليهم،
وهاهي ذي الحجج التي ساقها العقاد لإبطال هذا الزعم، نسوقها
كنموذج لتفنيده للآراء التي لا تستند إلى برهان صحيح أو حجة
واضحة:

أولاً: ليس هناك مما رواه الرواة من أخبار الخلافة بعد
النبي ﷺ كلمة ترجح وجود تدبير بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة.
ثانياً: إن خلائق الثلاثة رضوان الله عليهم تأبى مثل هذا
العمل، ولا تأذن لتوهم أن يتوهم فيهم التآمر.
ثالثاً: لم يكن في سيرة أبي بكر وعمر ما ينم عن طمع في
السطوة.

رابعاً: تدل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع
منهم جميعاً موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها.
خامساً: كانت أمارات استخلافه طاهرة من طلائعها الأولى
قبل مرض النبي ﷺ.

سادساً: كانت هناك أمارات تدل على أن النبي عليه الصلاة
والسلام لا يريد أن يثبت في الأذهان اتجاهات تجعل الدولة هاشمية
يرثها بنو هاشم.

سابعاً: ليس هناك من كان يخشى أن تصير الخلافة إليه دون
أبي بكر، ويحول بينه وبين الخلافة: فالذين ولوا الخلافة بعده هم
عمر وعثمان وعلي ومعاوية.. وهم جميعاً لم يكونوا كفاء أبي
بكر.. فكفته راجحة عليهم جميعاً:

(أ) فعمر كان أصغر من أبي بكر في بيئة تحترم السن.. ولم تكن له سابقة في الإسلام مثل أبي بكر.. كما أن الناس لا تألفه كما تألف أبا بكر.

(ب) ولقد أسلم عثمان على يدي أبي بكر، فهو مقدم عليه.. وإذا كان عثمان من بني أمية - أولى العصبة من القوة - فإن زعامتها كانت في يد أبي سفيان.

(ج) أما علي فقد كان صغيراً.. وهي عقبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حق السن، ومكانة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من النبي ﷺ.. ولم تكن هناك تلك الوصية حتى يتآمر على حق "علي" المتآمرون.

(د) ولم يكن الطريق ممهداً أمام معاوية لأنه من بني أمية، وقريش لا ترضى أن تكون الدولة لبني أمية فيختار الخليفة منهم. ثامناً: ولقد كان الأنصار يدركون أن الأمر لقريش.. ولو لم يكن هذا الإدراك عندهم، وتمسكوا بالخلافة ما أفاد تدبير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة في انتزاعها منهم⁽¹⁾.

(1) عبقرية الصديق من ص 15 إلى 33.

الموازنة بين العبقرى وغيره من العظماء

ولقد وازن العقاد كثيراً بين العبقرى الذى يرسم صورته وغيره من العظماء حتى تتجلى العبقرية التى امتازوا بها، وتظهر ملامحها أبرز ما تكون:

وازن بين فن محمد ﷺ وفن نابليون أبرع القادة المحدثين على أسلوب حرب الحركة، الذى كان الأسلوب الغالب فى العصور الماضية، والذى ظهر فى الحرب العالمية الثانية أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب:

(1) فنابليون كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع.. وهو على يقين من أن هذا يعفيه عن المحاولات التى يلجأ إليها جلة القواد.

وكان النبى عليه السلام سابقاً إلى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها فكان لا يبدأ أحداً بالعدوان .. ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر والناس مجدبون والقيظ ملتهب، والشدة

بالغة، كما حدث في غزوة تبوك - فلا يشبه ذلك عن الخطة التي تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع، وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال، ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي فلم يحدث ما توقعوه.

(2) وكان نابليون يقول: إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد.. والنبي عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان.. ومعجزة الإيمان هنا أعظم جداً من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة.

(3) كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يفضل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره.. ومثل هذا كان النبي عليه السلام يفعله، فحارب قريشاً في تجارتها، وكان يبعث السرايا في أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

(4) وكان نابليون يوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة.. ونرجع إلى غزوات النبي عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها في الغدر والوقيعة؛ كما حدث في حصار بني قريظة وبني قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

(5) كان نابليون معتدّاً برأيه في الفنون العسكرية إلا أنه كان يشاور صحبه في مجلس الحرب.. ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع، ويقبل مشورتهم أحسن قبول.

(6) ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.. وكانت فراسة النبي ﷺ مضرب الأمثال كما تدل على ذلك أرجح الروايات.

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد ﷺ وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين.. ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح، ولم يتخذ محمد الحرب صناعة ولا عمد إليها إلا لدفع غارة وانتقاء عداوة.. فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه فله فضل السبق على جيار الحروب الحديثة التي تعلمها وعاش لها، ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء⁽¹⁾.

(1) عبقرية محمد من 47 إلى 52.

كما وازن بين خطط الاستطلاع التي كان يسير عليها محمد ﷺ وتجربة هتلر في الحرب العالمية الثانية، وانتهى إلى أن مقدره محمد لم تنقص عن فنه إن لم تزد عنه إحكاماً وإتقاناً⁽¹⁾.

وقارن في "عبقريه عمر" بين محمد وعمر، فمحمد ﷺ إنسان عظيم، وعمر رضي الله عنه رجل عظيم ومن هنا وسعت عاطفه محمد عواطف إنسانية لم تتسع لها عاطفه عمر.. وعلى هذا فسرت بعض مواقف لم يطلقها عمر وأطلقها محمد ﷺ "فالنبي لا يكون رجلاً عظيماً وكفى بل لا بد أن يكون إنساناً عظيماً فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التي تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيؤه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم.. فيكون عارفاً بها وإن لم يكن متصفاً بها، قادراً على علاجها، وإن لم يكن معرضاً لأدوائها... شاملاً لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخيراً بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء لأنه يملك مثلها آفاقاً كآفاقها: هي آفاق الروح"⁽²⁾.

(1) عبقرية محمد من ص 44 إلى 55.

(2) عبقرية عمر من 227 إلى 230.

وفي "عبقرية الصديق" وازن بين أبي بكر وبين عمر وعثمان وعلي ومعاوية؛ ليوضح أن أبا بكر أحق وأجدر بالخلافة منهم⁽¹⁾ جميعاً ثم قارن بين أبي بكر وعمر في علاقتهما بالنبي ﷺ: فكان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الإسلام غير مدافع، وكان عمر نموذج الاجتهاد دون مرء، وكلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته، ويعجب به غاية ما في وسعه من إعجاب؛ لكن حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته، واقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته وعلى رضاه.. وعلى هذا يمكن تفسير كثير من أعمال الرجلين التي بدت متقابلة، سائرة في طريقين: أبو بكر لإعجابه بمحمد النبي كان فيها أول المقتدين. وعمر لإعجابه بالنبي محمد كان فيها ثاني المجتهدين.⁽²⁾

وننتقل إلى "عبقرية الإمام" لنرى الموازنة بين علي ومعاوية وبين الفئة التي كانت تناصر علياً والفئة التي كانت تناصر معاوية، وبهذه الموازنة حلت مشكلات كثرت فيها الأقوال في التاريخ الإسلامي، وأجيب فيها على كثير من الأسئلة التي كانت تثار لكل مفكر أو دارس لهذه الفترة الحرجة: لماذا لم يوفق علي في التغلب على التمرد الذي واجهه من بعض الشخصيات الإسلامية الكبيرة مثل طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم؟.. ما طبيعة

(1) عبقرية الصديق من ص 24 إلى 26.

(2) عبقرية الصديق من ص 69 إلى 82.

هؤلاء الذين كانوا معه، ولماذا لم يكن مطاعاً بينهم، وانشق فريق منهم عليه وهم الخوارج؟ لماذا كان معاوية مطاعاً بين مناصريه؟.. وقبل هذا وذاك ما الدور الذي قام به علي أثناء الثورة على عثمان؟.. هل كان في إمكانه أن يغير ما كان قبل أن يكون، باعتباره زعيماً له مكانته بين الثوار وجلة الصحابة من المهاجرين والأنصار في المدينة؟⁽¹⁾ وهل كان علي شجاعاً لكنه لم يكن من أهل السياسة؟ ولهذا فشل في أن يجنب الأمة ما حاق بها من الفتن في هذه الفترة؟⁽²⁾ كل هذا وضحه توضيحاً كاملاً من خلال مقارناته، وأبان شخصية علي ودورها الحقيقي في التاريخ.. "وأنصف علياً لأنه مظلوم عند المؤرخين المحدثين خاصة في الغرب" على حد تعبير الدكتور طه حسين⁽³⁾.

وإذا تناولنا "عبقرية خالد" رأينا هذه الموازنة بين خالد وقائدين من الطراز الأول في الزمن القديم، وهما "الإسكندر" و"بلزاربوس"، وقد حاربا عدواً كعدوه في ميدان كميده وانهى العقاد من ذلك إلى بيان أن مكان خالد في التاريخ العسكري مكان الطليعة بين أكبر القادة الذين اشتهروا بالفن والعبقرية العسكريين⁽⁴⁾.

(1) عبقرية الإمام من ص 32 إلى 44.

(2) عبقرية الإمام من ص 85 إلى 117.

(3) صحيفة الأهرام 16 - 3 - 1964.

(4) عبقرية خالد ص 228.

كما وازن بين خالد وعمر في السمة التي تطبع أعمالهما بطابعها، وهي سمة "الجندية" فأوضح أن عوامل الوراثة والنشأة كان لهما أكبر الأثر في اختلاف هذين العبقريين في لون هذه الجندية، أما عمر فقد نشأ في قبيلة بني عدي التي كانت تحكم بين الخصومات في الجاهلية... وقد ذقت طعم الظلم من أقرباؤها بني عبد شمس وكانوا أشداء في الحرب يسمونهم لعقة الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقبائهم، فاستقر فيهم بغض القوي المظلوم للظلم وحبه للعدل الذي مارسوه ودربوا عليه، ومن هنا كانت جنديته تغلب عليها الناحية الروحية أو ناحية الضمير، فكان جندياً في أخلاقه الوازنة الحاكمة.

ولكن خالداً نشأ في بني مخزوم الذين كانوا أهل حرب وسطوة، وأصحاب ثراء ورخاء، وكانوا في الجاهلية موكلين بالخيال والسلاح معتزين بالعتاد والتلبد، والعدة والعديد... وكان ثراؤهم يملي لهم في أسباب الترف والنعيم.

وبالموازنة بين الأسرتين نجد الاختلاف بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن في ملمسه... وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين... كما أن هناك الفرق في البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد، وهو فرق يتغلغل إلى بواطن الطباع: فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا قلق عصبي في هذه الأسرة قد تطرف جد

التطرف في أفراد منها واعتدل بعض الاعتدال في آخرين، وذكر
عن خالد ما يدل على أن أثراً من آثار أعصاب الأسرة كان عنده.
فهذا الفارق بين القبيلتين والأسرتين مفسر صالح لاختلاف
لوني الجندي في شخصية الرجلين العظيمين: عمر جنديته موزوعة،
وخالد جنديته مدفوعة، وعمر أميل إلى الشظف المختار... وخالد
أميل إلى المتاع المباح⁽¹⁾.

(1) عبقرية خالد من ص 231 إلى 235.

رسم الصورة بطريقتي الإيجاب والسلب

والعقاد يرسم الصورة بطريقة الإضافة والإيجاب أو بطريقة النفي والسلب.

والطريقة الأولى هي الكثيرة الغالبة في العبقريات فيبين أن للعبقري كذا وكذا من الصفات أو الأخلاق، ولا حاجة بنا إلى ضرب الأمثلة على هذه الطريقة؛ لأنك حيثما قلبت في العبقريات فستجد الشواهد الكثيرة الدالة عليها. أما الطريقة الثانية فيجدها القارئ عندما يتعرض العقاد لإسلام أبي بكر رضي الله عنه، ويكشف سر تلييته السريعة إلى الإسلام حتى قال عنه الرسول ﷺ: "ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كبرة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر، ما عكم عنه (تأخر) حين ذكرته له، وما تردد فيه).

بين العقاد الصفات التي كانت تمنع الجاهلي، وتمنع أي إنسان من إجابة دعوة جديدة يدعى إليها، وموقف أبي بكر منها:

- (1) الغطرسة التي تأتي على صاحبها أن يسمع قولاً أو يصيح إلى دعوة ترفعاً عن الإصغاء من أول الأمر.. لكن أبا بكر لم يكن متغطرساً بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع.
- (2) السيادة المهددة التي توحى إلى صاحبها كراهة التجديد لأنه يهدد القديم الذي قامت هذه السيادة عليه.. وأبو بكر - وإن كان من ذوي الشرف من قريش - لم تكن له سيادة مضروبة على أعناق الناس هدها الدين الجديد.
- (3) المصلحة في النظام القائم، وهذا يجعل الرجل يكره الدين الجديد لقوات هذه المصلحة عليه... لكن أبا بكر لم تكن له مصلحة في دوام الجاهلية لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات... وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المنفعة والغنيمة.. أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة لأن صاحب الإسلام يبيحها ويزاؤها.
- (4) الذهن المغلق الذي لا يتفتح للفهم والتفكير، وهذا يجعل صاحبه بمعزل عن فهم الدعوة الجديدة بأية حال.. ولم يكن أبو بكر مغلق الذهن بل كان معروفاً بالذكاء والفتنة.
- (5) مغماسة الشهوات التي تحبب إلى المرء الاستراحة والركون إلى العرف الذي يبيحها.. ويعزف عن الدعوة التي تحظرها وتحرمها، ولم يكن أبو بكر مغماساً للشهوات في الجاهلية فلم يشرب الخمر، ولم يركب الدنس.

(6) الشعور بقوة سلطان العقيدة بين أبناء قومه، وهذا يقوي الإصرار عليها.. وأبو بكر لم يكن متعصباً للجاهلية وعبادتها بل لعله كان مزديراً لها مستخفاً بالأصنام و أحلام عابديها.

(7) الجبن الذي ينهى عن الخروج على المألوف، والتصدي لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد.. لكن أبا بكر لم يكن جباناً بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين في الجاهلية والإسلام.

(8) الإيغال في الشيخوخة الذي يصد الإنسان عن كل تغيير ويميل به إلى كل تواصل ومتابعة وتقليد.. وأبو بكر لم يكن شيخاً فانياً متابعاً لكل قديم.

(9) حداثة السن التي تجعل الإنسان تابعاً لغيره في الرأي والخلقة، والتي تجعل له شرّة تحجبه عن التروية والمراجعة.. أو ذلة مطبوعة تلحقة بمن أذلة، وبسط سلطانه عليه، ولم يكن أبو بكر حدثاً صغيراً تطيش به شرّة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وهداه⁽¹⁾.

وفي "عبقرية الإمام" أوضح العقاد السر في عدم تخلص الإمام من المشاغبين في جيشه بضرية قاضية تخلصه سريعاً منهم حيث تعسرت الحيلة ولم تنجح الأحابيل السياسية كما فعل الكثير من أبطال التاريخ؛ أوضح ذلك فذكر أننا إذا نظرنا إلى خلق الإمام

(1) عبقرية الصديق ص 83 إلى 88.

كرم الله وجهه وجدنا أنه "لم يكن من أصحاب هذه الملكة التي اتصف بها بعض أبطال القلاقل في أيام الفصل بين عهدين متدبرين - عهدي الخلافة الدينية والدنيوية - فكانت له ضربة الشجاع ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر"⁽¹⁾.

وهكذا تعددت الوسائل التي رسم بها العقاد صور العظماء على نحو واضح غير عسير على الفهم بحيث تتجسم الصورة أمام الأعين نقية من الشوائب التي ألحقت بها على مدى مراحل التاريخ من الجهلاء والمغرضين.

(1) عبقرية الإمام من ص 104 إلى 105. والنص من ص 105.

استعداد ومنهج

1 - ثقافة العقاد ومدى استخدامها في العبقريات.

ثقافة العقاد متعددة متنوعة - ثقافة العقاد في التاريخ الإسلامي - العقاد ناقش الروايات التاريخية.

2 - منهجه النفسي الأدبي.

لماذا اختار العقاد المنهج النفسي؟ - العقاد لم يبلغ الدراسة الاجتماعية - لم تكن دراسة العقاد على مستوى علم النفس الذي يحفل بالمصطلحات - أدبية العقاد وناحيته - نماذج للتعاخف مع الشخصيات والتعبير الجميل.

ثقافة العقاد ومدى استخدامها في العبقريات

ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن العقاد كان يهدف إلى تصوير عظمة الشخصيات الإسلامية، وهذا الهدف أمله عليه دوافع متعددة حدث به إلى تناول هذه الشخصيات من تلك الزاوية، وفي الفصل السابق أوضحنا أنه اتخذ من الوسائل ما جعل هذه العبقريات تتجسم أمام الأعين نقية من الشوائب التي ألحقت بها على مدى مراحل التاريخ من الجهلاء والمغرضين.

ونريد الآن أن نبين مدى نجاح العقاد في اتخاذ هذه الوسائل للوصول إلى هدفه، وفي سبيل هذا نبحت عن ثقافة العقاد التي استخدمت في العبقريات والمنهج الذي أثر ويؤثر أن يستخدمه على غيره من المناهج.

والمعروف أن ثقافة العقاد متعددة متنوعة، لا تقتصر على لون واحد من ألوان المعرفة أو جانب دون آخر من جوانبها.. والشخصيات التي تناولها أسهمت بجوانب متعددة من جوانب الحياة، وبرعت في

كثير من مجالاتها: في السياسة والحرب والثقافة والحكم والإدارة والعلاقات الإنسانية... كما أن هذه الشخصيات أثرت في عصرها وتأثرت به... وأي متعرض لها بالدراسة لا يوفق، وخاصة في الهدف الذي رمى إليه العقاد إلا إذا كان مطلعاً على هذه المجالات في مبادئها وقواعدها ومقوماتها ومقدار ما تحفظه الإنسانية من سبق وكمال فيها، كما لا بد له أن يكون مدركاً لطبيعة العصر الذي عاشوا فيه والمؤثرات التي أثرت فيهم وكونت شخصياتهم.

وقارئ العبقريات يرى أن العقاد قد ألم بالقدر الكافي الذي يجعله قادراً على إمطة اللثام عن دوافع أعمالهم وسلوكهم ومقدار كفاءتهم في ميادين الحياة التي خاضوها.

فعندما درس "عبقرية محمد" الحربية حشد كل ما يحتاج إليه هذا الموضوع، واستحضر ما يقره القانون الدولي في شأن الحروب وأصول العلاقات التي تكون بين الدول في حالة الحرب، وما تفعله الدول الحديثة إزاء حوادث الطلائع أو اختراق الحدود، والمبادئ العامة التي تخضع لها شؤون الحرب والسلام في القديم والحديث⁽¹⁾.

وعندما يتعرض لعبقرية خالد الحربية ألم بالقدر الكبير من فنون الحرب ونظام الجيوش وطريقة محاربتها، وعوامل الهزيمة والنصر⁽²⁾.. كل ذلك بالقدر الذي يجعله قادراً على إعطاء موضوعه

(1) عبقرية محمد من ص 39 إلى 74.

(2) عبقرية خالد من ص 217 إلى 229.

كفايته من البحث غير محتاج إلى مزيد من الدراسة، أو مقصر في نقطة من النقاط التي تعرض لها.

وتناول عبقرية محمد السياسية، فتكلم عن معاني السياسة في العرف الحديث في كلمات قصار تبين مقدار حصيلته في هذا الفن، وهي كبيرة ولا شك "والسياسة على معان كثيرة في العرف الحديث.. فمنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط في أعمالها الخارجية.. ومنها ما يكون بين الراعي ورعيته، أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات.. ولكل معنى من هذه المعاني اصطلاحه في العرف الحديث، وإن جمعتها كلمة السياسة في اللغة العربية"⁽¹⁾ ونرى هذا أيضاً عندما كتب عن عبقرية محمد الإدارية⁽²⁾، وعندما تعرض لفصاحته⁽³⁾ ﷺ.

ويتضح هذا وضوحاً تاماً في كل من الفصلين اللذين عقدهما في "عبقرية عمر" و"عبقرية الصديق"، "عمر والحكومة العصرية" و"الصديق والحكومة العصرية" ففي الفصل الأول تعرض للحكومات المختلفة في العصر الحديث من "ثيوقراطية" إلى "أوتوقراطية" إلى "حكومة الغوغاء" إلى "الديمقراطية" مقارناً بينها

(1) عبقرية محمد ص 77.

(2) المصدر السابق ص 87.

(3) المصدر السابق ص 28.

وبين حكومة الصديق رضي الله عنه⁽¹⁾. وذكر في أول الفصل الثاني من الحقائق الهامة عن التفرقة بين العصر الذي نعيش فيه والعصور السابقة⁽²⁾ ذكر الخبير الملم بثقافة واسعة في هذا الموضوع.

أما ثقافته في التاريخ الإسلامي، وإطلاعها على المراحل التي كانت وعاء صببت فيه تلك الشخصيات أعمالها، وتحركت على مداها مؤثرة ومتأثرة بها فهي الثقافة الواسعة الواعية.. والتي لا تقتصر على تاريخ الشخصيات بل تتعدى ذلك إلى تاريخ الأمة التي نشؤوا فيها، والبيئة التي نهلوا من مواردها، والشخصيات التي شاركهم في أحداثها.. والتيارات التي كانت تموج في الأمة العربية في تلك العصور بحيث إننا إذا قرأنا العبقريات خرجنا بتصوير دقيق للمجتمع الإسلامي في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وحبذا لو ضم كتاب "عثمان بن عفان" للعقاد فيسد الفترة التي ولي عثمان الخلافة فيها.

وإذا كنا قد لاحظنا في أول هذا البحث أنه لا يقصد بأعماله التأريخ للعباقرة⁽³⁾ فليس معنى هذا أنه قد جار على التاريخ فقلب حقائقه في سبيل إثبات ما يرمي إليه؛ بل كثيراً ما تحرى الدقة في الاستنباط من الروايات التي يأخذها، ووقف أمامها لتبيين

(1) عبقرية الصديق من ص 152 إلى 168.

(2) عبقرية عمر من ص 189 إلى 193.

(3) انظر ص 4 و5 من هذا البحث.

صحيحها من زيفها ، والأمثلة على هذا كثيرة ، ولكننا سنورد هنا مثالين يوضحان ما نريد . فعندما ناقش الرواية التي تقول بأن عمر أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية رأى أن الأدلة تتكاتف على كذبها ، وهي :

(1) أن معظم الذين دحضوها وأبرؤوا عمر من تبعاتها من مؤرخي الأوربيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين ، وكانوا جميعاً من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع مثل "إدورد جيبنون" صاحب كتاب "الدولة الرومانية في انحدارها وسقوطها" والدكتور "الفردبتلر" المؤرخ الإنجليزي الذي أسهب في تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية ، والمستشرق "كارانوف" الذي يسمي هذه الحكاية أسطورة⁽¹⁾ .

(2) ولقد سكت المؤرخون المسلمون والمسيحيون الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية إلى أن نجمت بعد بضعة قرون فلماذا سكتوا؟.

(3) والمعقول أنها وضعت حوالي القرن السادس الهجري ، ودست على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم ، وتسجيل التعصب الذميمة عليه وعلى الإسلام.. وهذا كان وقت الحروب الصليبية.. يوم كان العصر عصر حزازة بين

(1) عبقرية عمر من ص 308 إلى 317.

الإسلام وخصومه.. ويوم كانت مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال ولم تكن مصر كذلك إلا في هذا العصر حين كانت ميدان الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها.

رأى العقاد هذه الأدلة فرفض الرواية، ولم يأخذ بها بل سجل ما يخالفها وهو أن عمر لم يكن ضد الثقافة الأجنبية.

وعندما تكلم عن عدل عمر، رضي الله عنه، وأنه كان مثار المبالغة ذكر الرواية التي تبالغ في الدلالة على عدل عمر، وأنه أقام الحد على ابنه وهو ميت بعد أن اشتد في الضرب عليه حتى مات.. والعقاد لم يرفض هذه الرواية جملة كما رفض الرواية الأولى جميعها، بل أبقى منها ما يؤيده الواقع والدليل، وهو هنا يقارن بين الروايات التي وردت من طرق مختلفة في هذا الموضوع، ويستخلص:

(1) أن الجزء الذي يقول بأن عمرو بن العاص قد أتاه ابن الخليفة ليقيم عليه الحد، وأنه تردد في ذلك ثم أقام عليه الحد هذا الجزء صحيح لأنه يوافق ما عرف عن خوف عمرو من عمر وخشيته من عقابه إن لم يقم الحد، وما عرف عنه من الدهاء الذي يملئ عليه ترده في إقامة الحد على ابن الخليفة.

(2) كذلك نقبل ما يوافق طبيعة عمر من أنه يسوي بين أبنائه وبين غيرهم في إقامة الحدود وتنفيذ واجبات العدالة، وعلى هذا فما قيل من أنه أقام الحد على ابنه صحيح.

(3) يجب أن يستبعد ما قيل من أنه أقام الحد على ابنه حتى مات أو أنه أقام عليه الحد بعد موته لأن هذا يخالف مسلك عمر في مثل هذه الوقائع وما عرف عنه من العدل الذي لا يجور ومن علمه بالدين.. وكراهته رياء الناس.

(4) روى القصة أيضاً عبد الله بن عمر، ولم يبالغ فيها مع أنه أحق الناس بالمبالغة في عدل أبيه... وليس فيها ما يدل على أن أخاه مات من الحد، بل يقول: إن أخاه لبث شهراً صحيحاً ثم أصابه قدره فتحسب عامة الناس أنه مات من الحد⁽¹⁾.

ويجب أن نتذكر في هذا الصدد أن العقاد لم يكتب العبقريات إلا ابتداءً من عام 1942 حين أصدر عبقرية محمد وعبقرية عمر في هذا العام ثم عبقرية خالد عام 1945، وفي عام 1949 أصدر عبقرية الإمام وأخيراً عبقرية الصديق عام 1951⁽²⁾، ولا شك في أن هذه المرحلة كانت متأخرة في حياته، وازدادت عندها تجاربه خيرة، ونمت ثقافته، وأصبح جديراً للتصدي لمثل هذه الأعمال التي يحس فيها القارئ أن تجربة ثرية قد أفرغت فيها، وأن قلماً قد اكتملت له كل الأدوات قد سجلها.

(1) عبقرية عمر من 39 إلى 47.

(2) طائفة من رواد الفكر الحديث للعقاد: دراسة وتحليل ص 311.

منهج العقاد النفسي الأدبي

ولقد اختار العقاد المنهج النفسي في كتابة العبقريات وأثره من بين المناهج التي يمكن أن يتناول بها الكتابة عن الشخصيات. وخاصة المنهج الاجتماعي الذي يؤثره بعض أدبائنا الكبار، لأن هذا المنهج الأخير لا يقدر على تفسير بواعث أعمال شخصيات يتحركون في بيئة واحدة، وينهلون من مورد واحد... وإذا أخذنا مثلاً الشخصيات التي كتب عنها العقاد في العبقريات فإننا نجد أنهم جميعاً من قريش ونشؤوا في مكة، كما نجد أن معلمهم وأستاذهم واحد، وهو محمد صلوات الله وسلامه عليه... وأن العقيدة التي انضوا تحت لوائها واحدة.. لكن المنهج النفسي يوضح لنا مثلاً لماذا أسلم أبو بكر قبلهم جميعاً ولماذا اختلفت علاقة أبي بكر بالنبي عن علاقة عمر به ﷺ، ولماذا اختلف خالد عن عمر مع أنهما تشابها جسماً ومع اتفاقهما في مفتاح واحد لشخصيتهما... وغير ذلك من الأمور التي وضح نجاح المنهج النفسي في الكشف عنها.

على أن اتباع المنهج الاجتماعي فيما كان العقاد يهدف إليه يؤدي إلى البحث في جوانب قد تطفئ على الشخصية نفسها، وهي

التي يعنى كاتبنا بالتركيز عليها؛ لأنها محور البحث، ومدار التنبية. ورد الاعتبار لعظمتها وعبقريتها هو الهدف الأول والأخير من تناولها بالدراسة.

ولا بد من ملاحظة أن هذا الاتجاه من العقاد لم يبلغ الدراسة الاجتماعية في العبقريات، ولم يهمل دورها، بل لها إسهام كبير في رسم الشخصيات، وتفسير الكثير من الأعمال، وذلك واضح في بيان المؤثرات الاجتماعية في العبقري من قبيلة وأسرة ورث عنهما، وبيئة نشأ فيها وطبعته بطابعها⁽¹⁾.. كما أسهب في الكلام على عصر الفتنة بين علي ومعاوية وبين علي وبعض الصحابة⁽²⁾..

وفي عبقرية خالد درس العقاد أسباب انتصار العرب على الفرس والروم، وحلل طبيعة العرب الحربية من بدو وحضر.. وأثر البيئة التي جعلتهم أهل حرب، وعندهم من المؤهلات والميزات ما يجعلهم جديرين بالانتصار على الدولتين الكبيرتين آنذاك⁽³⁾.

ولم تكن دراسته النفسية على مستوى علم النفس⁽⁴⁾ الذي يحفل بالمصطلحات والأساليب التي يستعملها علماء النفس بحيث لا

(1) عبقرية محمد من ص 19 إلى ص 23 - عبقرية عمر من ص 36 إلى ص 38 - عبقرية

الصدوق من ص 10 إلى ص 12 - عبقرية الإمام ص 5 - عبقرية خالد ص 17 إلى ص 44.

(2) عبقرية الإمام من ص 22 إلى ص 44.

(3) عبقرية خالد من ص 3 إلى ص 16 ومن ص 150 إلى ص 165.

(4) محمد خليفة التونسي: العقاد دراسة وتحية من ص 224 إلى ص 226.

يفهمها إلا كل من درس هذا العلم أو ألم بطرف منه، بل كانت دراسته مبسطة تكاد تبتعد عن هذا العلم غاية البعد إلا أنها استفادت منه حقيقة ووجهتها إلى طريقة الكشف عن بواطن الأعمال ومناط العظمة في النفس، ووزن جميع الأقوال والأعمال والحركات وتفسيرها وتوضيح مدى ارتباطها بنفس العبقرى.

وربما كانت أدبية العقاد وطواعية قلمه له، وملاحظته الفذة من العوامل التي ساعدته على ذلك بحيث لا يستعصي عليه التعبير الجميل عن معنى من المعاني التي يريدونها.. والحق أنه كان للعقاد أسلوب الأديب في عبقرياته، حيث يتعاطف مع الشخصيات، ويقدمهم في زي جميل من التعبير يقرب المعنى، ويوضح الموقف الذي يتحدث عنه، وسأورد فقرات من العبقرى كنماذج للتعاطف والتعبير الجميل:

صور العقاد ما يعتمل بنفس محمد الإنسان العظيم يوم توفى ابنه إبراهيم فقال: "طال اشتياق النبي إلى الوليد المأمول، وتجدد اشتياقه في إثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد... فبشرت النبي بعقب لعله غلام، واجتمع في هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة، ورجاء لا ينتهي بانتهاء الزمان.. وولد إبراهيم... ولد الطفل الذي نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين، بل ألوف السنين، وتخير له الاسم الذي وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى، ليكون أباً ويكون له أحفاد، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد.. ثم مات ذلك الطفل الصغير.. ومات ذلك الأمل الكبير.. مات

كلاهما والأب في الستين.. أي صدمة في ختام العمر؟ أي أمل في الحياة؟ الدين قد تم، وهذه الأصرة قد انقطعت، فليس في الحياة ما يستقبل وينتظر: كل ما فيها للإشاحة والإدبار... ما تخيلت محمداً في موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعاً إلى الله.. نفس قد نفتت الرجاء في نفوس الألوفاً بعد الألوفاً... وهي في ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز: رجاء وأسفاه لا يحييه كل ما ينفته المصلح في الدنيا من رجاء.. خرج الرجل الذي اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها وهو لا يضطلع بحمل قدميه.. خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة في حجره الأبوي قبل أن يودعه حجر التراب، وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال: يا جيل! لو كان بك مثل ما بي لهدك. ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون⁽¹⁾.

وصور مقدار تأثر الصحابة يوم سماع بلال يؤذن بعد موت الرسول ﷺ فقال: "فيما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذي انقطع بعد النبي يرتفع رويداً رويداً في الفضاء.. ويسري رويداً رويداً من الأسماع إلى الصدور. والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هل عاد محمد إلى الأرض؟ إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدر إنسان،

(1) عبقرية محمد من ص 170 إلى ص 174.

فذابت قلوب لا يذيبها الهول، وبكى أشيب أولئك الأبطال
وأصبرهم على حر القتال"⁽¹⁾.

وكتب العقاد عن رحمة عمر، وإن حجبها قسوة ظاهرة،
فقال: "إذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلاة المودة في نفس
هذا الرجل المهيّب الخيف فلننقب عنها في ينابيعها الخفية التي
تسري منها وترقرق في نواحيها، ولننقب عنها في الصخور التي
تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها، أو نحن حريون أن ننقب عنها
بين هذه الصخور والأعلام، ولكن على هدى وبصيرة فلا نقنع منها
برأي العين من بعيد أو قريب، ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شيء
تحتويه"⁽²⁾.

وعلى هذا يمكن القول بأن العقاد نحى منحى نفسياً أدبياً في
كتابة العبقريات ولم يوغل في متاهات الدراسات النفسية فتأتي
دراسة جافة.. كما أنه لم يغلب الناحية الأدبية بحيث تطفئ على
الحقائق العلمية التي لا بد منها لإقناع كل قارئ بعظمة
الشخصيات التي تناولها بالدراسة.

(1) عبقرية عمر ص 300.

(2) عبقرية عمر ص 333. ويمكن أن ترى مثل هذا التعبير في غير موضع من
العبقريات.

أما لماحيته وفطنته فقد ظهرتنا في استخراج مدلولات كبيرة من حوادث وروايات صغيرة قصيرة.. وهذا كثير لا يخفى على قارئ العبقريات وخاصة عندما يستخلص الصفات الخلقية للشخصية. كما وضحتنا في استخراج المحور النفسي الذي تدور عليه شخصية العبقرية والمدخل الذي يفض منها كل مغلق، وهو ما سماه العقاد "مفتاح الشخصية".. والعقاد في هذا الباب يفسر ويحلل ويعلل على نحو مقنع لا يحتاج إلى مزيد برهان ودون أن تبدو للقارئ مبالغة أو ادعاء في هذا الموضوع⁽¹⁾.

(1) عبقرية عمر من ص 87 إلى 110 - عبقرية خالد من ص 230 إلى 242 عبقرية الإمام من ص 20 إلى 25 - عبقرية الصديق من ص 52 إلى 68.

خاتمة

ولم تكن الكتابة عن العبقریات نزوة طارئة لا ترتكز على إیمان بالدور الذي قامت به على مسرح التاريخ الإسلامي، بل كانت هناك الدوافع التي جعلت كاتب العبقریات يكرس الجهد الكبير والخبرة الطويلة لما تصدى له من عمل، عن إیمان قوي وعقيدة دافعة وجهته وجهة محددة في الكتابة عن تلك الشخصیات، ولم يكن ليحيد عنها، وإلا كان متناقضاً مع نفسه ومع المنهج الذي رسمه.

وشخصية العقاد واضحة في عبقریاته بحيث تميزت كتاباته عن كتابات غيره من أدبائنا ومفكرینا في هذه الموضوعات، وإن كان هناك دافع اشترك العقاد فيه معهم، فقد دفعهم جميعاً كما

سبق أن ذكرنا الإيمان بأن التراث الإسلامي وزعماء الأمة العربية هم خير ملهم لأبناء عصرنا ، وهذا أجدى من الاتجاه إلى ما كان يهدف إليه الاستعمار من بعث الفرعونية تارة والتهوين من شأن التراث الإسلامي تارة أخرى عن طريق الترويج للتراث الغربي والمبالغة في الدور الذي أداه.

وبالرغم من كل هذا نقرأ عن أحد هؤلاء العباقره عند العقاد فنجد المنهج المختلف عما كتبه غيره مثل هيكل وطه حسين وتوفيق الحكيم وعبد الرحمن الشرقاوي وغيرهم فبينما نجد العقاد يحرص على أن تكون كتابته كشافاً عن بواعث أعمال العظيم ووصولاً إلى مفتاح شخصيته فإننا نجد هيكل يتبع منهج التحليل العلمي⁽¹⁾ الذي يصل به إلى توضيح الدور الحقيقي الذي أسهمت به هذه الشخصيات في تغيير مجرى التاريخ، ونجد طه حسين يتبع المنهج الاجتماعي الذي يوضح المجتمع بصراعاته ومختلف التيارات التي تسري فيه، على حين نجد محمداً عند توفيق الحكيم والشرقاوي عملاً أدبياً⁽²⁾ أكثر منه علمياً هدفه أولاً: إثارة الوجدان قبل أن يثبت حقائق علمية.

لكن هذا الاختلاف لا ينفي أن العبقرية عمل استكملت أدواته وأعطى ثمرته... كما أعطت هذه الأعمال ثمرتها، ولا زالت

(1) عبد المنعم شمس، اليمن الجديدة ص 73.

(2) توفيق الحكيم: محمد، الكتاب الذهبي عدد 6 مارس 1959 ص 6.

تغذي جيلنا كما غذت الجيل الذي أنشئت فيه.. ومن العسير أن نقارن بين هذه الأعمال والاتجاهات لنقول: إن هذا الاتجاه أفضل أو ذلك أحسن، لأن كلا منهما يرضي نزعة معينة عند القارئ بحيث لا يتصادم مع نزعات أخرى.. ومن اليسير أن يقرأ الشخص أعمال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وهيكل يقرأ لهم جميعاً ويحس بأن كلا منهم قد أفاده من ناحية معينة، ويخرج من قراءتها بشيء من الاطمئنان النفسي والرضا العقلي والاستمتاع العاطفي، لأن الاختلاف ليس في الرأي بقدر ما هو في الطريق الذي يوصل إلى الهدف.. وما أكثر ما تلتقي الطرق عند هدف واحد.

مراجع ومصادر

- 1 : (11).
- 2 - أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار الكتاب العربي، بيروت.
- 3 - أنيس منصور: صحيفة الأخبار 1966/3/12 - 1966/3/26.
- 4 - جلال العشري: مجلة الإذاعة 1967/3/25.
- 5 - رجاء النقاش: صحيفة الجمهورية 1964/3/19.
- 6 - د. شوقي ضيف: مع العقاد: دار المعارف بمصر (أقرأ 259).
- 7 - د. طه حسين: صحيفة الأهرام 1964/3/16.
- 8 - عباس محمود العقاد:
عبقرية محمد: دار الهلال بالقاهرة. العدد 1 - يونيه 1951.
عبقرية خالد: دار الكتب الحديثة. شارع الجمهورية بالقاهرة.
عبقرية عمر: ط3 - 1947 المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.
عبقرية الإمام: دار المعارف (سلسلة أقرأ 113).

- عبقرية الصديق: ط8. دار المعارف بمصر 1965.
- عثمان بن عفان: دار الهلال أبريل 1954 العدد 37.
- بنجامين فرانكلين: مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.
- 9 - عبد المنعم شמים: مجلة اليمن الجديدة عدد 23 مايو سنة 1967.
- 10 - د. محمد عبد الرحيم مصطفى: الهلال أبريل سنة 1967.
- 11 - نخبة من رواد الفكر الحديث: العقاد دراسة وتحية - مكتبة الأنجلو المصرية.
- 12 - د. نعمات أحمد فؤاد: عبقریات العقاد الإسلامية، مجلة الأزهر الجزء الثاني والثالث من السنة الثامنة والثلاثين: صفر، جمادى الآخرة 1386هـ - مايو، أغسطس 1966م.

الفهرس

5.....	
15.....	
19.....	
21.....	
24.....	
37.....	
39.....	
45.....	
55.....	
62.....	
72.....	
83.....	
85.....	
90.....	
94.....	
102.....	
107.....	
109.....	

116.....
123.....
127.....